عمرو عبد العزيز منير

الشرقية

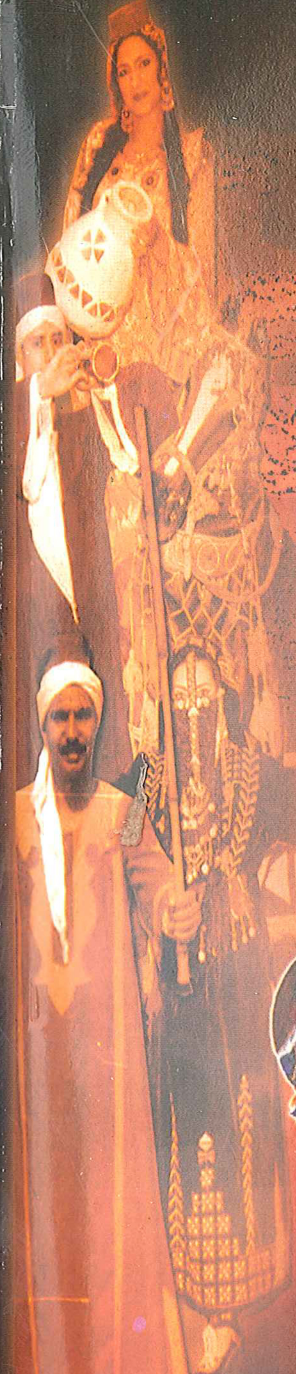
بين التاريخ والفولكلور

تقديم

دكتور / كارم محمود عزيز

الشرقية بين التاريخ والفولكلور

عمرو عبد العزيز منير



لكل إقليم لغته الخاصة .. تماما كالبشر .لكل لغته وكل واحد منا له لغة خاصة والكثير من الأقاليم تمنحك مفاتيحها قبل أن تزورها .. تستطيع أن تقرأها أن تكتبها أو أن تتخيلها وتصنع منها مكانا روائيا كما لو كنت أحد أبنائها .. إلا الشرقية .. فأنا أعرفها منذ نعومة أظافرى .. هنا دفنت مراهقتى وسنوات من شبابى .. ولى فيها من الأصدقاءِ ما يفوق عدد أصدقائى فى بقية هذا العالم وبالرغم من هذه العلاقة فإنني فى كل مرة أزورها أردد هذا المقطع الجميل للشاعر البرتغالى الفارودى كامبوس :

سأكون ذلك الذى ينتظر

أمام جدار بلا باب

أن يفتحوا له الباب



عمرو

عمرو عبد العزيز منير

الشرقيـــــة

بين التاريخ والفولكلور

تقـديم:

دكتور كارم محمود عزيز

* إهـــداء

إلى أستاذي الدكتور :

قاسم عبده قاسم

الذي علمني الحروف الأولى وأغراني عشقه

بتاريخ الناس وموروثهم الشعبي ،،

عمرو

تقديم

تأملات ذاتية حول التاريخ والفولكلور!

بقلم الأستاذ الدكتور: كارم محمود عزيز

إن المتتبع الدأوب لمعظم المدونات التاريخية ، لابد وأنه سيلحظ ذلك التركيز الشديد لتلك المدونات – في بنيتها السردية وربما التحليلية – علي : شرائح معينة من البشر وعلي مساحات وقطاعات مكانية بعينها . ومن ثم فإنه بالضرورة يتم إغفال شرائح ومساحات وقطاعات (بشرية – زمانية – مكانية) ذات أهمية ليست بالقدر القليل في بنية الأحداث التاريخية ،مما يؤدي إلي انسحابها إلي عالم النسيان (ربما المؤقت أو الدائم) ، وهو الأمر الذي يجعل من عملية "التأريخ " - إلي حد ما – عملية "انتقائية" .

ولمزيد من الإيضاح ، يمكن القول إن معظم المدونات التاريخية تلقي بقعة الضوء السردي التاريخي علي النحو الآتي :

١- المشاهير من الملوك والوزراء والحكام ورجال الدين والأبطال والزعماء والقادة فحسب –من بين شريحة "العنصر البشري " (الذي يمثل جوهر العملية التاريخية).

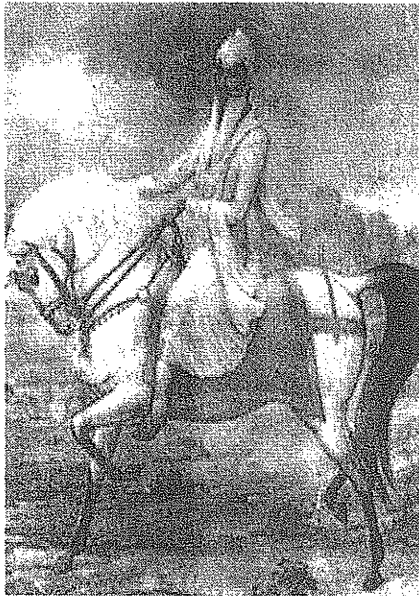
٢- أحداث ووقائع وصراعات وجرائم وإنجازات وإخفاقات وصعود وهبوط هذه الشريحة الزمنية المنتقاة ،بما يعكس تركيز آخر على المساحات "الزمنية " المرتبطة بهذه الشريحة فقط .

٣- "الحيز" أو الأماكن التي تتحرك فيها وعليها هذه الشريحة البشرية وتلك المساحات الزمنية دون غيرها.

ومعنى هذا أن العديد من الشخصيات والوقائع والأماكن (التي استوعبت هذه الشخوص وتلك الوقائع) تقبع في المنطقة المظلمة من مسار التاريخ في شتى أنحاء العالم.

وربما يمكن أن نعثر على علة ذلك في : تواجد "المؤرخين" الراصدين للوقائع وما يرتبط بها (وهم –أي المؤرخون- قلة قليلة جدا بالنظر إلى حقول النشاط الإنساني الأخرى) في بؤر الأحداث الساخنة.

ولئن قدم الفيلسوف "توماس كارلايل"(في كتابه: *Hero and hero worship* = البطل وعبادة البطل ، والذي ظهرت ترجمته العربية تحت عنوان "الأبطال" – ترجمة محمد السباعي ،دار الرائد العربي ،بيروت،ط١٩٨٢،٤م/ص١)، قدم مبررا لانتقائية التاريخ بقوله : "..في اعتقادي أن التاريخ العام – تاريخ ما أحدثه الإنسان في هذا العالم – إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقناً ، فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدي كل ما أناطته به القدرة الإلهية من الخير. فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول ...)، فإنه يمكن القول بأن نظرة "كارلايل" تحمل بعض القصور ، حيث :



- ليس كل من دخل بؤرة الاهتمام التاريخي من "العظماء"بل إن منهم من لا يستحق أن يحفل به التاريخ على الإطلاق ، وينتمي إلى هؤلاء الأخيرين؛كل الخونة والطغاة وجلادي الشعوب والانتهازيين وغيرهم مثل : "شاور و ضرغام " –الوزيرين

اللذين تحكما في مصير"مصر" في أواخر العصر الفاطمي واستعانا بالقوى الأجنبية من الغرب الأوربي المناوئ لنا في سبيل تحقيق مآرب ومطامع شخصية ،ومثل الخديو"توفيق" و"خنفس باشا" اللذان خانا الزعيم "عرابي" وتسببا في احتلال مصر عسكرياً، وغير هذه الأمثلة كثير.

- عظمة الشخصيات التاريخية "نسبية" تختلف باختلاف الموقف من الشخصية . فمثلاً يختلف الموقف من شخصية مثل "نبوخذ نصر "- الملك البابلي الكلداني الذي أسر اليهود إلى بابل (عام٥٨٦ ق.م) - ما بين العراقيين القدماء الذين لابد وقد اعتبروه ملكاً عظيماً، وبين اليهود الذين ولابد أنهم قد اعتبروه عدواً ليس لهم فحسب بل لإلههم . وقس على ذلك شخصيات أخرى مثل :"فرعون موسى" ، والقائد الروماني "تيتوس" الذي عاقب اليهود لخبث مسلكهم ، وحتى فى الأيام الحاضرة :شخص مثل رئيس أمريكا الحالي ، وكيف يراه الأمريكيون والإسرائيليون ،وكيف تراه بقية شعوب العالم خاصة العربية والإسلامية ؟!
- هناك شخصيات تمتعت بعظمة حقيقية وقامت بأعمال جليلة بغض النظر عن جسامة تلك الأعمال أو قلتها ، لكنها لم تقع تحت بقعة الضوء التاريخي ، ولم تحفظ هذه الشخصية وأعمالها سوى الذاكرة الشعبية الدافعة والناهضة: فهل ذكرت كتب التاريخ شخصاً مثل "إبراهيم الورداني " المصري (المسيحي) الوطني الذي ثار لضحايا محكمة دنشواي المشبوهة برئاسة "بطرس غالي" (المسيحي أيضاً) فقتله ، وغنت له جموع الشعب وهو في طريقه إلى المحكمة : (قولوا لعين الشمس ما تحماشي ألا غزال البر صابح ماشي). وهل ذكرت كتب التاريخ شخصاً مثل البطل الشرقاوي الفلاح "عناني عواد " الذي ثار في وجه ظلم أعوان الأمير الإقطاعي محمد علي، وطُرد وشُرد ، ثم قتل في نهاية المطاف لأنه لم يتخل عن مبادئه وإصراره علي العدل والحرية .
- هناك ملاحم بطولية في التاريخ لم يصنعها أفراد ، بل صنعتها شعوب ، وحسبنا هنا ثورة أهل مصر ضد مظالم ومفاسد الإنجليز عام ١٩١٩م .

وعلى الرغم من انتقائية التاريخ وانحيازه ، فإن هناك جانباً تأريخياً تعويضياً مكملاً للصورة التاريخية (الناقصة أصلاً) ، هذا يتمثل البعض منه في "الفولكلور" أو "المأثورات الشعبية " ، وهى المادة التاريخية الأبرز التي احتفت بتاريخ الشعوب في مجموعها – هذا من ناحية ، كما تتسم بتركيزها – لا على الجانب السياسي من التاريخ فحسب ، بل على الجانب الاجتماعي والديني والثقافي بوجه عام من حياة الشعوب ، حيث ترسم لنا أنماط حيوات الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ولغاتهم ولهجاتهم وآدابهم وفنونهم بنفس القدر الذي تقدم لنا ثوراتهم ضد المظالم والمفاسد الاجتماعية ، أي أن تلك المأثورات تقدم لنا نسقاً تاريخياً متكاملاً تقريباً.

برغم ذلك يبقى الفارق – في نظر الكثيرين – بين المادة التاريخية الرسمية ونظيرتها "الشعبية" في "موثوقية وواقعية المادة الرسمية"(حسب النظرة الشائعة)

،بينما تتسم المادة "الشعبية" – وفقاً لنفس النظرة – بعدم موثوقيتها ، وباحتمالية تأسيسها في كثير من جوانبها على عنصر "الخيال الشعبي" أو بتعبير أوضح :أن المادة الشعبية هى "التاريخ من وجهة نظر الشعب أو الوعي الجمعي لا المؤرخ الفرد "،وهى وجهة النظر المتجه باللجوء إلى "الخيال" في غالبية الأحوال .

لكن يمكن الرد على ذلك بأنه : إذا كانت المادة التاريخية الشعبية تدفع إلى الاحتراز منها بسبب "مبالغات الخيال" التي قد تبعد كثيراً أو قليلاً عن الوقائع الفعلية ، فإن المدونات التاريخية الرسمية (التي تبدو موثوقة) يمكن اتهامها هى الأخرى بأنها تمثل وجهة نظر "المؤرخ الفرد"الذي قد ينحاز إلى شخوص معينين أو أحداث بذاتها،ومن ثم فانه تنقص مادته "الحياد والموضوعية" خاصة أن الكثير من المؤرخين دونوا تواريخهم في (القصور) ،وبالتالي فإنه يكون عرضة لحكم "الهوى الشخصي" أو"دوافع الحرج" أو حتى "الانتهازية في نيل رضا حاكم ما "،وما إلى ذلك من أشياء تؤثر سلباً على قدر المصداقية التاريخية لمدوناته .

ويبقى الحكم على مدى مصداقية التاريخ في كلتا الروايتين : الرسمية والشعبية رهن "الفحص النقدي التاريخي "، وهو الفحص الذي يمثل

الوسيلة لاستخراج الموثوق من المادة التاريخية بشكل عام ، حتى لو ناقض ما هو مألوف أو متعارف عليه فيما يخص واقعة بذاتها. ويمكن أن نضرب مثالاً هنا يتعلق بواقعة تاريخية من تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وهى واقعة موت الزعيم "مصطفى كامل " . فالمدونات التاريخية الرسمية تجمع (أو تكاد) على أنه أصيب بمرض عضال أثناء حملته في أوربا للتشهير بالاحتلال الإنجليزي لمصر.



ولكن على الجانب الآخر ، نجد الوجدان الشعبي يطرح سبباً مغايراً لموت زعيمه وبطله ، ويطرح رؤيته من خلال موال شعبي قائلاً :

إيش بعد حكم المحافظ والشاويش والباش
غلايين وساجها(ساقها) كرومر محربة للباش
وادي الانجليز اتفرعنوا بعد ما كانوا أوباش
يوم وجعة(واقعة) دنشواي لم خلوا نفر ولا أخوه
اللي اتشنج (شنق) مات واللي انجلد جلدوه
يوم شنج (شنق)زهران كانت صعبة وجفاته(وقفاته)
ليه أب زي الأسد يوم شنجه(شنقه)ما فاته
ظهر لنا نصر الديانه مصطفى باشا كامل
قال أنا اروح بلاد الانجليز واتكلم كلام كامل
رد خاله حسين باشا البرنس قال له روح يا بطل ولا تخافشي
غير السياسة وكلمة الحج(الحق) ما تقولشي
راح البطل ولا استناش
جمع كبار الانجليز حتى الشاويش والباش
قال لهم هاتوا الدفاتر وشوفوا الأصل يا حكام
هاتوا الدفاتر وشوفوا الأصل ما تفيدنا
عشان نفر مات خربتوا البر وبلادنا
قالوا له إيش تطلب يا مصطفى باشا كامل بالعجل فيدنا
قال لهم اطلب طلوع المساجين م السجن أمروا له
اطلب طلوع لنجليز(الانجليز) من مصر أمروا له
نزل على مصر واحد وتلاتين صباح كبار مصر يباركوا له

رجع سجوه(سقوه)مات يا خسارة يا كامل باش

ومن الكلمات المأثورة للفيلسوف الانجليزي "فرنسيس بيكون" قوله : "هناك كتب تستحق أن يذقها القارئ ، وأخرى تستحق أن يلتهمها ، وثالثة تستحق أن تمضغ وتهضم" . وفوق راحة اليد الآن كتاب لعله بما حقق لي من فائدة ومتعة يمكن وضعه بين الكتب التي تمثل حلماً مهما بالنسبة لي على الأقل ، وهو حلم "كشف المسكوت عنه تاريخياً عمداً أو بدون قصد" .فأي شعب بل وأية جماعة ، وحتى أية أسرة تستثيرها جداً معرفة جذورها وأصولها وماضيها ، خاصة عندما لا تتوافر عن هذا الماضي وتلك الجذور والأصول مدونات تاريخية (رسمية على وجه الخصوص) .

فكل سكان مصر – خاصة سكان المحافظات والمراكز والمدن والقرى – يقرأون تاريخ مصر الحديث ممثلاً فيما يجري في العاصمة "القاهرة" أو في مواقع الأحداث "الساخنة" ، وكلما ابتعدنا عن مراكز الأحداث بهتت الصورة التاريخية حتى تتلاشى في مواقع ربما تموج بأحداث شبيهة وإن كانت أقل جسامة.ومن ثم فإن هذا الكتـاب الذي يقدمه الباحث" عمرو عبد العزيز منير"يملأ فجوات في بنية " المسكوت عنه تاريخياً " في إحدى محافظات مصر البارزة-الشرقية – ذات التاريخ الحافل منذ عصر الدولة القديمة الفرعونية (حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد تقريباً) غير أن تاريخ الشرقية – شأنها شأن كل محافظات مصر الأخرى – لا يمثل بناء تاريخياً متماسكاً متتابعاً ، وإنما مجرد شذرات تاريخية متفرقة. والخدمة الجليلة التي يقدمها كتاب (الشرقية بين التاريخ والفولكلور)؛ هي جمع هذه الشذرات التاريخية عن تاريخ الشرقية جنباً إلى جنب ، بحيث تمثل تمهيداً لبناء تاريخ شبه متتابع عن هذه المحافظة ، تاريخ يرتكز على ما ورد متفرقاً في العديد من المدونات التاريخية الرسمية ، بنفس القدر الذي يرتكز فيه على الروايات الشعبية .

وحلم "كشف مناطق الظل التاريخية" الذي أشرت إليه آنفاً ، لا أحلم به فيما يخص الشرقية (المحافظة) فحسب ، بل أيضاً فيما يتعلق بكل محافظات مصر ، وهو حلم بمشروع "قومي" يجمع تاريخ محافظات مصر – كل على حده – ثم ضمه بعد تصنيفه إلى عصور أو فترات

تاريخية ، بحيث يشكل في النهاية بنية تاريخية شبه متكاملة لمصر كلها – عاصمة وأقاليم - ، على أن تتبنى مثل هذا المشروع / الحلم . هيئات متخصصة مثل " الجمعية التاريخية المصرية " بالتعاون مع " الجمعية الجغرافية" و"أطلس الفولكلور المصري بوزارة الثقافة" والجامعات المصرية وغيرها من الهيئات المعنية .

ولئن كانت هناك بعض المآخذ النقدية ، فإنه على الرغم من هذه المآخذ ، يحسب للباحث "عمرو عبد العزيز منير " جرأته في التصدي لمشروع "جماعي" بشكل فردي شخصي ، وتركه لأطروحة الدكتوراه التي يعدها – لوقت ما – حتى يصدر مثل هذا الكتاب الذي يمثل " المحاولة الأولى " التي غالبا ما تأتي عرضة للنقد ، بينما تكمن أهميتها القصوى في طرح (المشروع / الحلم) إلى حيز التنفيذ . والواقع أننا في أشد الحاجة في مصر إلى مثل هذه الكتب الجيدة التي تكشف لنا عن بعض جوانب حضارتنا النبيلة ... فهي تسعد المثقفين ، ومحبي التاريخ ، وعاشقي الفولكلور ، حيث يجدون فيها بعض ما يغذي العقل ، ويرهف الحس ، ويثير الوجدان ، ويثري الفكر ، ويحفزهم إلى مزيد من الاعتزاز بقوميتهم وبوطنهم الحبيب .

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نقدم الشكر للكاتب على ما بذله من جهد ، وأن نتمنى للقارئ سياحة مفيدة ...لذيذة... في صفحات هذا الكتاب .

والله ولي التوفيق،،،

د.كارم محمود عزيز
كلية الآداب / جامعة حلوان

حلوان في : الثاني من رمضان ١٤٢٦هـ

مدخل :

الشرقية ... بين الناس والخيل ! !

عالم الأدب الشعبي عالم مليء بالقضايا الإنسانية التى يُتعامِل معها فى سياق فني محكم وببساطة وعمق آسرين وفى منطقة هامة من مناطق التعرية لكل ما هو غامض وممتنع ينبش فى الأعمق من هذا الخضم ليأتي بأقوال وعادات تنتظم ، وهذا الواقع المرير واقع المجتمع السلبي إزاء قضاياه المتعاقبة والجامحة بزوايا منحرفة عن كل قيمة وأصل وجمال تمهيداً لإعادة صياغة أخرى لهذا الواقع المعاش بما يتماثل وأهمية الوجود الإنسانى فى كل الأحوال ، من هنا تبدأ مشروعية وجود الأدب الشعبي الذي لا يعنى بالضرورة إجابة على سؤال مدهش بقدر ما ينبغى عليه أن يؤكد على طرح السؤال فى لحظة إنسانية تكاد تكون مصيرية وفعالة لافتضاح الواقع وتعريته وبث معطيات جمالية تعيد للمجتمع الإنسانى موقعه الأمثل ... بالتأكيد هى أحلام الفنان الشعبي التى يتردد صداها فى أعماق اللاممكن واللامتاح .

وانطلاقاً من هذا المفهوم تفجر الإنسان الشرقاوى متعاملاً مع العالم بنبرة التهكم والسخرية فى أزجاله وأشعاره ومواويله وفنه مؤكداً وجوب تغيير .. ثورة .. ضد اللامألوف واللاإنسانى .. ضد الجموح .. الهيمنة .. ضد الطبقية .. الموت ما قبل الموت وضد القهر . انتصاراً لرقعة خضراء تصلح لابتسامة هادئة غير مروعة تتنبىء

بالرضا والسماحة قمة الشعور الإنساني الذي تجسد فى ملحمة الفلاح الشرقاوى (عناني عواد) ابن كفور نجم الذي حمل لواء الثورة على الإقطاع وثار على الظلم ممثلاً فى أعوان الأمير الإقطاعي (محمد على) الذي كان يسيطر على أراضى(كفور نجم)، فثار مطالباً بحقوق أهل قريته بعد أن ثارت فى أعماقه كبرياء كل الفلاحين وعُوقِب بطرده ونفيه وتشريد أهله ، ثم عاد ليوضع تحت المراقبة هو وخمسة من زملائه كالمجرمين والقتلة ، ولكن ثورته لم تهدأ ، فأعدوا له كميناً فى الفجر وقتلوه وهو خارج من نقطة البوليس ، وشهد الشهود بذلك فى التحقيقات التى كانت تجرى آنذاك ، ولكن عواد الذي لبى نداء الحرية ترك وراءه رمزاً لروح المقاومة الشعبية عند الفلاح المصري (١) فكان نفساً ذكية وملحمة بطولية تحولت إلى طاقة روحية تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل تبعث كوامن الحياة ودوافع العمل في الشعب كاد يفقد ثقته بنفسه وبالقدرة على النهوض .

وهكذا كان أبناء الشرقية متميزين كما كانت هى متميزة عبر التاريخ لدرجة أنه لم يستطع أحد أن ينكر دورهم ولا حتى دورها ، فهم بها وهى بهم الحارس الأمين على المدخل الشرقي لمصر ، بل معبراً للداخل أو الخارج من الجهة الشرقية ، وعبر الشرقية دخلت أفواج القادمين من شبه جزيرة العرب عن طريق فلسطين فسيناء ثم الشرقية ، ومن بعد انتشروا فى الدلتا



والوجه القبلي [٢] وكانت الشرقية بحكم موقعها تواجه الصدمة الأولى في كل مراحل كفاحنا ضد الغزاة المغيرين من الشرق ، كما كان لأبنائها شرف الدفاع عن أمهم الرؤوم (مصر) ، من هنا كانت الخبرة طويلة لأنها خبرة تاريخ وحضارة وموقع هام ومكانة منفردة على امتداد التاريخ وتنوع بيئي وسكاني ، وبالتالى كان لهذا كله دور كبير وفعال فى تشكيل وتلوين الأدب الشعبي الشرقاوى حتى فى تعامله مع غير الإنسان من طير أو حيوان أو نبات أو جماد نرى فلسفته الخاصة التى تجعل من العالم الجزئي والكلى فلكاً واحداً محوره التجربة الإنسانية الأم ... فكانت المادة الفلكلورية والحكايات والحواديت والأغاني والمواويل الشعبية عبارة عن فن يسترعى الانتباه ونصوص تورد عدداً من القيم والتي ساهمت بدورها فى تمدين الشعب المنتمى إلى أول أمة أسست أول دولة عرفها التاريخ نمت فى نفسها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح ، وبعدها كانت أول دولة بالمعنى السياسي المنظم تظهر على مسرح العالم [٣] رغم ما سبق فقد جاء حين من الدهر اضطربت فيه أحوال الشرقية في عصر الاضمحلال الثاني أو العصر الوسيط الثاني (من حوالي ١٧٨٥ق.م إلي ١٥٦٠ ق.م)، وكان من نتيجة هذا الاضطراب هو احتلال مصر عسكرياً عندما سال لعاب البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون في الصحاري والسهول الآسيوية بشرق البلاد ولهذا فقد ازدادت في البداية أعداد الوافدين والمتسللين من هؤلاء الرعاة ،ثم جاءت بعدهم جحافل وقبائل متعددة ،فرضت وجودها بالقوة العسكرية

عام(١٧٢٥ ق.م)، وهي جماعات أطلق عليهم اسم (حقاو – خاسوت) بمعنى (حكام الأقاليم الأجنبية)، وذلك للمرة الأولى فى تاريخها ، وهم الجماعات الذين اشتهروا فى التاريخ باسم (الهكسوس)أو (الرؤساء الأجانب) أو (الملوك الرعاة) طبقا للترجمة الحرفية لكلمة هكسوس . ليقيموا ما يقرب من ٢١٦ سنة على أرض الشرقية .

وبعد استقرار الهكسوس فى الشرقية لم يلبث الشرقاويون الأقدمون الذين يجرى فى عروقهم الدم المصري الذي لا تشوبه شائبة أجنبية أن رجعوا لأنفسهم يتهمونها بالجبن والتفريط فى حق الوطن مما أدى إلى سريان الحمية فى نفوسهم وإذكاء نار الحماسة فيهم فثاروا على الأجنبي المغتصب ، لكن شتان بين الهكسوس الأجلاف المخشوشنين والمصريين المترفين ، ومع هذا فقاتلهم المصريون حتى خانهم المجال فوطئتهم العربات الحربية – المصنوعة من الحديد والبرنز والتي تجرها الخيول – ،هذه النوعية من التسليح لم تكن معروفة بعد في مصر و التي جاء بها الهكسوس أول مرة فلم يتعود المصريون لقاءها فى حروبهم قبل ذلك .



ولما تم للهكسوس إخضاع مصر الثائرة بعد إن ابتعلوها ، وظنوا أنهم قادرين على هضمها ألقوا السلاح جانباً وركنوا إلى حياة الدعة والترف ونشئوا أبناءهم تنشئة غير تنشئتهم ، فشبوا فى أحضان النعيم وبدأ الهكسوس يقلدون المصريين في عاداتهم وطرق حياتهم ،ويعتنقون الثقافة المصرية،بل ويؤمنون أيضا بالديانة المصرية حيث جعلوا عبادة الإله المصري (ست) وهو إله الشر ، هي الديانة الرسمية للدولة التي أقاموها في الدلتا والتي اختاروا لها أرض الشرقية لتكون مركزا للحكم ،ومن ثم فقد فقدوا مع الترف كثيراً من صفات آبائهم العسكرية .أما المصريون الذين غلبوا على أمرهم وقد حرموا مما كانوا فيه ينعمون ، فاخشوشنوا مضطرين وأتقنوا صنع العربات الحربية وتدربوا على الكر والفر ، وبدأ المصريون يرفعون رؤوسهم بعد طول تنكيس ، وتذكروا ملكهم المسلوب فاجمعوا أمرهم على طرد المغتصب الدخيل وبدأت حروب التحرير وطهر المصريون أرضهم من الاحتلال الأجنبي وظلت (أواريس)(تل الضبعة مركز فاقوس) بالشرقية التي استخدمها حكام الهكسوس كعاصمة لهم ذات طابع حربي هام ،كما دلت الحفريات الأثرية علي أن الشرقية من أكثر مناطق الدلتا ثراء في الآثار المصرية وإذا كان هذا الثراء لا يبدو للعيان فإن مرجع ذلك إلى الزحف العمراني الذي جار على الكثير من المناطق الأثرية بالإضافة إلى إرتفاع منسوب المياه الجوفية والعوامل البيئية والبشرية الأخرى، ولقد شهدت أرض الشرقية عاصمتين من عواصم مصر القديمة هما تانيس (صان الحجر) أسرة ٢١ ، و(تل بسطة) أسرة ٢٢، ثم هناك

مدينة(برر عمسو) التي أنشئت في بداية عهـد (الرعامـسة) ومكانهـا الآن(قنتير) مركز فاقوس. بالإضافة إلى (أواريس)، وكانت الـشرقية منذ عصور ما قبل التاريخ موطناً للإنسان المصري وظلـت تمـارس دورها البارز طوال العصور الفرعونية واليونانية والرومانيـة . وقـد دلت الحفريات الأثرية عام (١٩٩٩م) على بقايا قصر ضـخم للملـك أحمس الأول الذي طارد الهكسوس حتى أجلاهم عن مصر عام(٥٨٠ ق . م) في منطقة الضبعة بالشرقية وتعد أقدم الشواهد الأثريـة حتـى الآن للدولة الوسطى ، حيث عثر على آثار من عهد الملوك منتوحتـب الرابع وأمنمحات الأول وسنوسرت الأول وأمنمحـات الثـاني ، وقـد شهدت منطقة تل الضبعة وبعض المناطق المجاورة لها كالختاعنة ، تل البركة ، تل الفلوس ، عزبة حلمي ، وعزبة رشدي. أحداثاً هامة خلال عصر الانتقال الثاني تمثلت في قدوم الهجرات الآسيوية(الهكسوس)[٥] ، برغم ذلك فقد أفاد الهكسوس الشرقية ومصر بكونهم أول من أدخلوا استخدام الخيول في البلاد فكان أمراً له وزنه ودلالته [٦] فـي أمـور الحرب والقتال ، وفى المقابل فإن قبيلة قيس العربية والتـي هـاجرت إلى الشرقية فى عام (١٠٩ هـ) أحدثت نقلة اجتماعية كبيرة فى البنـاء الإجتماعى لسكان الشرقية ؛ حيث جاءت هجرتهم وفقاً لرغبات رجال الإدارة فى الإكثار من القبائل التى ينتمون إليها فى البلاد التى يديرونها ، فلم يأتوا مسلحين مثلما جاءت هجرة الهكسوس بسلاحهم [٧] وتركوا آثارهم فى منطقة الشرقية ، ومقابل ذلك نجد أن قيساً أمـرت بـشراء الخيول وتربيتها وتدريبها خاصة مع انخفاض تكلفة تربيتهـا لجـودة

مراعى المنطقة [٨] ولم تكتف قبيلة قيس بشراء الخيول وتربيتها فقط بل إن الأمر تعدى ذلك إلى تجارتها مع باقي القبائل العربية الأخرى فضلاً عن إمداد القوات العسكرية بالفسطاط بها أيضاً .وذكر الكندي والمقريزي أن الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهر حتى يركب[٩] ، وتشتهر الشرقية إلي الآن بخيولها العربية الأصيلة والتي صارت رمزاً لها ، وأشار ابن عبد الحكم إلى أن أصل خيل مصر يعود إلى خيل سمى (بن عفير) وبعضها من خيل "أشقر " قبيلة الصدف وغيرها من خيول رجالات القبائل العربية ، واشتهر فرس يسمى " الأبلق " فى قبيلة جذام [١٠] ، وكانت بلبيس من أهم مناطق سباق الخيل ؛ حيث تتمركز قبيلة قيس واستمرت حلبة السباق على عادتها وازدهرت فى بعض الأحيان غير أنه حدثت محاولات لإيقافها بسبب دورها فى نشوب عدد من المنازعات ، غير أنها سرعان ما عادت لسابق مجدها نظراً لجلبها المنافع إلى جانب وظيفتها الترفيهية

وهكذا تقف الشرقية بخيولها اليوم شامخة لكونها تنحدر من تلك الأصول العربية العريقة لأسلافها لتتسع أمامنا الرؤيا وتضيق العبارة ، فالاتساع بحجم التاريخ وعبقرية الجغرافيا وقراءة الأنثربولوجيا والضيق بقدر المخزون الموروث منذ آلاف السنين والذي تختزله الثقافة الشعبية فى طيات الجيولوجيا الإنسانية لتعيد إنتاجه فى اختزال شحيح .

تلك البيئة الكريمة المعطاءة ما زالت ترفد الإنسان بزاد لا ينتهي وتسقيه من كوثر جنة الثوابت القيمة – العربية والإسلامية – وتطبع على بطاقته الجينية أبرز الصفات المنتقاة من سلالة الفراعين البنائين المحاربين والسمات المصطفاة من مجد قبائل عرب الشمال وسؤود وجسارة عرب الجنوب ، ونفحة المجاهدين الأوائل في فتوح الإسلام(١١) وطهارة خطى العذراء وروحانية معجزات السيد المسيح " ليعرف المصريون الرب في ذلك اليوم " (إشعيا ١٩ : ٢١) وليعلنوا بفخر عن انتمائهم لهذه الأمة ولكن ليس من ذلك النوع من الفخر الذي يقعدهم متغنين بمجدها الغابر ، أو بماضيها الذهبي أو البكاء على أطلالها وإنما بالبحث عن الحي في الأمة في عالم أفكارها وموروثاتها الشعبية وحياتها وفاعليتها وبالبحث عن ضرورات الإحياء ومساراته فيها والانكفاء على الذات والنبش في تراثنا المصري الثرى لنقف مع أنفسنا ونعرف بالتحديد " من نحن وإلى أين ؟! .



ولعل هذا يسهم في أن نتخلى عن موجات " التغريب " المتدافعة والوقوف بثبات ضد مخططات تزييف الوعي وشل الإرادة وإهدار المقدرة والبحث في تضاريس وطننا بواقعه وتحدياته ، وطننا بإمكاناته وطاقاته ، وطننا في مستقبله ، وواقعه الواهن وذاكرته التاريخية والشعبية الدافعة الناهضة والتزاماً من أبنائه بإحياء كل ما يعينه على البقاء والحياة والصمود.

الفصل الأول

الشرقية وثوراتها الشعبية

القسم الأول

الشرقية في مواكب النور

" أصبح القبط بعد الإسلام في مأمن من الخوف وعادت الحياة إلى مذهب القبط في الجو الجديد – جو الحرية الدينية "

"من كتاب القرد ج. بتلر: فتح العرب لمصر"

" إن الأقباط الذين كانوا بالفرما عاونوا الجيش الإسلامي ورحبوا به "

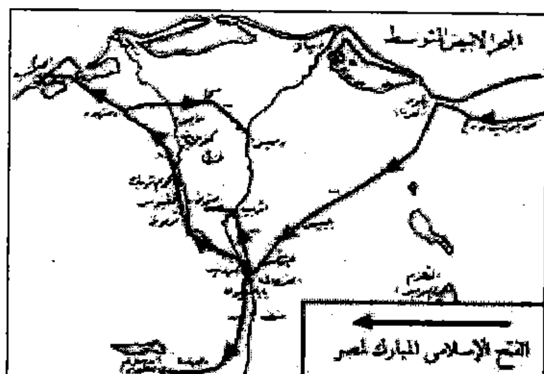
"ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها"

في السابع من إبريل عام ١٩٩٨م . الموافق العاشر من ذي الحجة في العام ١٤١٨هـ يكون قد مضى أربعة عشر قرنا كاملة على الفتح الإسلامي لمصر وقد توافق هذا الحدث الهام في تاريخ العالم مع حلول عيد الأضحى المبارك في العاشر من ذي الحجة من عام ١٨ هـ/ ٦٣٩م.، فاحتفل العرب بالمناسبتين معاً في العريش (١) .



وواصل عمرو بن العاص مسيرته إلى منطقة الصالحية (٢) ملتزمين جانب الصحراء ومخالفين في ذلك أكثر من عداهم من فاتحي مصر مثل قمبيز الذي سار من الفرما متجهاً نحو الغرب إلى سنهور وتانيس (صان الحجر بالشرقية) ومن ثم إلى بوباستيس (بالزقازيق) (٣)، وواصل عمرو بن العاص مسيرته حتى بلغ بلبيس ،وواجه المسلمون حامية بيزنطية وجري بينهما قتال حوالي الشهر،

وانقض الروم على جيش العرب،ولكن دارت عليهم الدوائر وطاش سهمهم وتمزق جيشهم على أرض الشرقية شر ممزق.



وبعد أن أمضى العرب فى بلبيس قرابة شهر ، هبطوا منها إلى (أم دنين) لاستكمال الفتح حتى تم لهم ما أرادوا وأصبحت مصر قطراً عربياً إسلامياً جزءاً هاماً من الوطن الإسلامي الكبير، يجري عليها ما يجري على غيرها من أحكامه وظروفه، وتستشعر أن لها مسئولية خاصة فى الدفاع عن كل ديار العروبة والإسلام فى فترات التحدي الحاسمة ، ونجد ذلك فى تأملنا لموجتين استعماريتين من أخطر الموجات التى تعرض لها العالم العربي المسلم وهما الموجة الصليبية وموجة التتار (٤) .

وأصبحت مصر ولاية عربية ، واستقرت أحوال مصر على يد عمرو بن العاص واستتبت أمورها ، فأقام المسلمون فيها حكومة عادلة عاملت المصريين معاملة مبنية على العدل والتسامح حتى شعر المصريون بالفارق الكبير بين حكام الرومان وحكام المسلمين الذين امتاز أغلبهم برعاية قبط مصر والحدب عليهم (٥) ولم يشذ من هؤلاء الحكام سوى نفر قليل ، ولكننا نجد أن المصريين على طول تاريخهم

الضارب بجذوره فى فجر الضمير الانسانى كــانوا بالمرصــاد لكــل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم عليهم إما بالثورة الشعبية أو بالــسخرية والتهكم والهجاء والتي كانت من أهم الأسلحة التى استخدموها بمهــارة فائقة فى هذا المجال خاصة إذا كانت شخصية الحاكم نفسه تدعو لذلك ، وكان مظهر هذا جلياً فى الشرقية .

حيث إن الشرقية قد أشْرِبَتْ نفوس أهلها شجاعة حقة بما وقر فيها من مظاهر البسالة الرائعة لامتزاج الأهلين بالعرب الوافدين على مصر ، وقد توالت وفودهم على مصر واستوطن أغلبهم الشرقية وصاهروا أهلها وارتبطوا بهم بوسائل مختلفة حتى زالت من نفوس الكثيرين منهم النعرة العربية إلا قليلاً من القبائل حافظت على صبغتها العربية في المصاهرة والعادات دون اللغة وأسباب النفع والحضارة (٦) وتجلى مظهر الشجاعة فيهم حين هب أبناء الشرقية بأول ثورة شعبية فى العهد الأموي بعدما استشرى الفساد لبعض الولاة والحكام الذي وصل إلى حد قبول الرشاوى مثلما حدث فى عام (٨٧ هـ) حين ارتشى عبدالله بن عبدالملك (والى مصر) بأخذ الأموال لنفسه من الخراج ، وفى ولاية الحر بن يوسف انتفضت عامة الشرقية عام (١٠٧ هـ / ٧٢٥ م)فأخضع الحر بن يوسف الثورة الشعبية بعد قتل عدد كبير من الثائرين أبناء الشرقية (٧) كانت هذه الثورة بداية دور جديد لأبناء الشرقية خاصة وللمصريين عامة ، فهذه أول مرة يتركون سبيل المقاومة السلبية إزاء ثقل الأعباء المالية عليهم ، ويقاومون الحاكم فى مصر مقاومة ايجابية ، والباع الأكبر في ذلك يعود لسكان

الشرقية الذين قاموا بتلك الانتفاضات ، غير أنهم تحملوا فى سبيل ذلك الكثير من الآلام ، ولكن الثورة الشعبية فى الشرقية سرعان ما أنبتت شجرتها وامتدت فروعها خارجها وصار (الحوف الشرقي) (اصطلاح جغرافي يقصد به الجزء الشرقي من الدلتا) من حينئذ مركزاً دائماً للثورة طوال العهدين الأموي والعباسي (٨).

واستتبع ذلك قيام عبيد الله بن الحباب عامل الخراج فى عهد الحر بن يوسف باستقدام قبيلة قيس من الجزيرة العربية وتوطينها بلبيس وما حولها وذلك لتقوية جانب المسلمين من أهالي الشرقية وزيادة قوة القيسية مقابل القبائل العربية الجنوبية (اليمنية) لإحداث التوازن العددي بين قاطني المنطقة للحد من الثورة والعصيان فى تلك البؤرة الساخنة (٩) .والتي كانت تمثل خطاً دفاعيا أول يحمي الفسطاط ضد كل من تسول له نفسه محاولة إقصاء الحكم الأموي عنها مثلما حدث حين نازعهم لفترة ما العلويون والزبيريون ،لهذا انتشرت حامياتهم وعيونهم علي مداخله .كما قام الحوف الشرقي في تلك الفترة بدور حيوي هام ،في الفتوحات الأموية في الشمال الأفريقي وبلاد المغرب حيث كانت المنطقة تمثل رأس جسر وقاعدة انطلاق القوات الفاتحة إلي تلك المناطق وغيرها بهدف استخلاصها من أعداء الدولة الإسلامية ،كما كانت الشرقية طريق وصول الإمدادات والدعم لتلك الحملات.

وبالرغم من ذلك فقد ظلت الشرقية أرضاً خصبة للكثير من القلاقل والإضطرابات التي وصلت إلى حد الثورة ضد ولاة مصر

وعمال خراجها حتى أن بعضهم لم يتمكن من دخول الفسطاط مقر الولاية وعادوا أدراجهم من حيث أتوا ، فقد كانت الشرقية بؤرة ساخنة للتمرد والثورة فى مصر ، لهذا كانت لها أهميتها واعتبارها بالنسبة لولاة الأمر فيها ، وكانت مواقف الشرقية متباينة فرحبت ببعضهم وتشددت مع الآخرين منهم ، مثال ذلك الوالي عبد الرحمن بن أم الحكم الذي ولاه معاوية بن أبى سفيان على الكوفة عام (٥٨ هـ)وطرده أهلها لسوء سيرته ، فولاه على مصر ، لكن سيرته سبقته إلى مصر فخرج إليه معاوية بن جديج على مرحلتين من الفسطاط (١٠) ، وقال له: " ارجع إلى خالك فلا تسر فينا سيرتك فى أهل الكوفة ، فرجع إلى معاوية .. " (١١)

والتهبت ثورات أهل الشرقية مع زوال الدولة الأموية ، وكان لهم دوراً مؤثراً في مساندة العباسيين خاصة بعدما أُشيع عن اتجاه مروان بن محمد (آخر خلفاء بنى أمية) الذي فر إلى مصر بعد هزيمته فى واقعة الزاب الأكبر بإحراق بعض القرى الشرقية لمصر ويبدو أن تأييد أهل الشرقية وقبائلها للعباسيين وللمناوئين لمروان بن محمد قد أثار حنقه وغضبه ،فأمر بإحراق مدن الحوف الشرقي وقراه وتم بالفعل إحراق بعض المدن والقرى في الشرقية ،كما عاثت قواته فساداً في الأرض لتحرق الحقول والأعلاف والغلال ،غير أن قوات العباسيين لحقت بها حيث تمكنت منها وأسروا بعض تلك القوات وقدموا بها إلي الفسطاط لتنتهي حياة مروان بن محمد على أرض مصر سنة(١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) حيث دفنت مع رفاته راية العهد

الأموي بمصر وصارت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة العباسية تبعية مباشرة وهكذا قدر الله للشرقية أن تكون أول من يرفع راية السواد (شعار العباسيين) وتخلع راية البياض شعار الأمويين ، وبدا أن ذلك التحول كان مقدمة لها لما بعدها في مصر عامة والحوف الشرقي خاصة.ورغم ذلك لم يكن العهد العباسي عصراً للوئام والوفاق الدائم بين الحكومة العباسية وأهالي الشرقية لنجد اشتعالاً للثورات الشعبية في الشرقية على الشاذين من ولاة مصر .

ففي عهد الخليفة العباسى المهدى ثار أهل الشرقية بمن فيهم القبائل العربية القيسية واليمنية لقتال والى مصر موسى بن مصعب (١٦٧ – ١٦٨ هـ) الذي تشدد فى جباية الخراج وفرض خراجاً على الدواب والأسواق ، وقتلوا عامل المهدى الذي ندب لقتالهم والى مصر الجديد الفضل بن صالح بن على العباسي الذي تولاها من قبل الخليفة المهدى فى عام (١٦٩ هـ)، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدى وانشغل بالقضاء على ثورة شبت فى الصعيد أيضاً (١٢) .

ولم تخب ثورة أهل الشرقية فى عهد هارون الرشيد ، فتذكر المصادر التاريخية أن والى مصر مسلمة بن يحيى (١٧٢ – ١٧٣هـ) الذي قدم إلى مصر بصحبة عشرة آلاف جندي فى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد امتلأت فترته بالفتن والإضطرابات ، وتكرر الأمر فى عهد والى مصر عبدالله بن المسيب (١٧٦ – ١٧٧ هـ) وفى ولاية إسحاق بن سليمان العباسى (١٧٧ – ١٧٨ هـ) .ثار أهل الشرقية بعد قيام الوالي بزيادة الخراج زيادة كبيرة أجحفت

بهم وثار أهل الشرقية وقاتلوا الوالي مما استدعى الوالي إلى طلب المعونة من بغداد ، فأرسل هارون الرشيد جيش قوامه عشرة آلاف جندى حتى استطاع قائد الجيش (هرثمة بن أعين) إخماد الثورة ، وتولى الليث بن الفضل (١٨٢ –١٨٧ هـ) واستخدم العنف والقهر فى جمع الخراج ، وتمكن الليث من قتل الكثير من أبناء الشرقية من العرب فى بلدة غيتة بالقرب من بلبيس ، وبرغم ذلك لم يذعن أهل الشرقية لاستبداد الوالى إلى أن تحمل محفوظ بن سليمان عبء جمع الخراج دون عنف وعمل على مهادنة أهل الشرقية باللين والملاطفة ، وانتهت الثورة بخلع الليث بن الفضل عن مصر وولى مكانه احمد بن إسماعيل الذي توجه مع محفوظ إلى مصر فدخلاها فى ٢٥ جمادى الآخرة عام ١٨٧ هـ [١٣] .

تتابعت ثورات الشرقية الواحدة تلي الأخرى حتى وصل الأمر بأحد الثائرين إلى منابذة الخلافة العباسية وقطع الطرق ، وتولى (الحسين بن جميل) (١٩٠ – ١٩٢ هـ) مصر من لدن الرشيد وتشدد فى جباية الخراج مما دفع أبو الندى مولى قبيلة بلى فى حوالي ألف رجل وأخذ يقطع الطريق وانضم إليه نفر من جذام ، فأرسل الخليفة العباسى (بيحيى بن معاذ) على رأس جيش كبير من بغداد للقضاء على تلك الثورة ، وتوجه (يحيى بن معاذ) إلى بلبيس فى (١١ من شوال ١٩١ هـ) واخمد الثورة وجمع الخراج وكان يحيى بن معاذ هذا هو صاحب الخديعة التي تمكن بها من الإيقاع برؤساء القبائل القيسية واليمانية بالحوف الشرقي والقبض عليهم ،وتقييدهم في السلاسل وخرج بهم إلي العراق في منتصف رجب عام (١٩٢هـ) [١٤].ولما ولى

حاتم بن هرثمة مصر عام(١٩٤هـ) قدم في ألف رجل ونزل بلبيس فصالحه أهل الحوف على أداء الخراج ولكنهم مـا لبثـوا أن نقـضوا صلحهم وثاروا عليه فبعث إليهم جيشا قاتلهم وأخمد ثورتهم وأسر مائه من الرهائن من أهل الحوف الشرقي .

وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بـين ولديـه الأمـين والمأمون عادت ثورات الشرقية القديمة لأن الأمين قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم فضمن بذلك ولاءهـم لـه حتى ثاروا في وجه نائب المأمون عليهم وتغلبوا عليه وقتلـوه ، ولمـا استتب الأمر للمأمون عين عبدالله بن طاهر والياً على مـصر وكـان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعاً يعدل بين الرعيـة ، واسـتطاع أن يقف ثورات المصريين عامة ويعيد الهدوء إلى ربوع مـصر (١٥) ، وعندما نقل عبدالله بن طاهر إلى خراسان عادت الشرقية إلى ثوراتهـا حين تعسف صاحب الخراج صالح بن شيرزاد وظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم .

ووصل الأمر إلى أن جاء الوالى الجديـد المعتـصم (أخـي الخليفة) ومعه قرابة أربعة آلاف من جنوده الأتراك وهاجم الشرقية ، ولكن أهلها استطاعوا حرق أمتعته واختبئوا وراء جـدران الفـسطاط فاستطاع المعتصم أن يفتك بكثير من زعماء الثورة ونجح فى تفريقهم والقبض على عبدالله بن حليس زعيم القيسية وعبدالسلام الجذامى زعيم اليمانية بالشرقية وتم للمعتصم ما أراد وقبض عليهما في بداية رمضان ،فقيدهما وسجنهما ثم قتلهما فيما بعد ، ودخل المعتصم إلي الفـسطاط منتصراً علي أهالي الشرقية في (٨رمضان عـام ٢١٤هـــ) وأقـام

بالفسطاط حتى تم له ما أراد ،ثم خرج عائداً إلي بغداد عبر الشرقية ،برفقة جنوده الأتراك ،وجمع عدداً من أسرى الشرقية أخذهم معه في مسيره إلي العراق مشاة حفاة أمام خيالته [١٦] برغم ذلك لم تهدأ الثورة الشعبية على النظام الحاكم ، فبعد مرور أربعة أشهر فقط من ولاية عيسى بن منصور (٢١٦ – ٢١٧ هـ) على مصر ثار عليه جميع أهالي مصر السفلى من القبائل العربية والأقباط بسبب فساد السلطة في مصر وبطشها بالأهالي واستخفاف النظام بالناس فى مصر حتى قرر الخليفة المأمون أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقمع الثورات المتأججة التى لم تكن لتقف عند حد .

والملاحظ أن الخليفة المأمون تفهم دوافع الأهالي ومعاناتهم فوجه اللوم للوالي وأخيه صاحب إقطاع مصر قائلاً : " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد " [١٧] .

وبرغم أن المأمون قتل الكثير والكثير من أبناء الشرقية ، فلم تذهب أرواح الشهداء من أهل مصر فى مهب الرياح بل أتت ثورتهم ثمارها بعزل الوالى وعماله وولى آخرين .

كان من نتيجة هذه المعاناة التى عاشها المصريون فى ظل سياسة العباسيين فى استغلال موارد مصر أن أصبح المصريون يتوقون إلى وضع اقتصادي أفضل ، خاصة وأن السياسة الضريبية كانت عاملاً هاماً فى كراهيتهم للحكومات الأجنبية التى حكمتهم قبل العرب مثل الفرس والإغريق والرومان الذين اعتبروا مصر بقرة حلوباً تدر

الرخاء لهم فى أثينا وروما والقسطنطينية بينما يتضور المصريون جوعاً ، فلما جاء الإسلام إليهم أحسوا بعدالته خاصة فى السياسة الضريبية التى اتبعها الولاة فى عهد الراشدين ، لكن سرعان ما انقلبت الأمور وبدأ بعض الولاة فى التشدد فى الأمور المالية مما أثار حفيظة المصريين بعدما أصبح الخلفاء يعتبرون مصر سلة للخبز [١٨] .

وفى غضون القرن الثالث الهجري انقطع ما بين مصر ودولة بنى العباس لنمو الأفكار الاستقلالية ، وتربع على عرش مصر آنذاك أحمد بن طولون(٨٦٨ م – ٢٥٤هـ) الذي أنشا فى مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى ، وهنا يجيء ذكر التاريخ للشرقية ويبرز اسم (العباسة) التي تقع على الطريق بين بلبيس والصالحية والتي اعتبرها المقدسى عاصمة الريف بأجمعه ، وتروى المصادر التاريخية أن العباسة بنت احمد بن طولون قد خرجت لتوديع أسماء بنت أخيها خماروية المشهورة بقطر الندى ، وضربت خيامها عند بلدة العباسة بالشرقية وأقامت مع وصيفاتها وصديقاتها مدة على أرض تلك القرية لتلقى نظرة الوداع على سفيرة مصر لدى قصر الخليفة وزوجته ، وترجح بعض المصادر التاريخية أن اسم بلدة العباسة اشتهر لإقامة شقيقة خماروية فى تلك المناسبة السعيدة وتذكر الروايات أن البلدة أسميت على اسم العباس بن أحمد بن طولون [١٩].

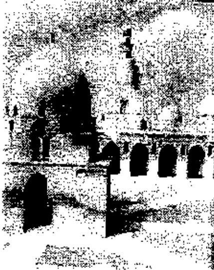
وقد أدرك الطولونيون أن المنطقة الشرقية هى صمام الأمان لحكمهم واستقلالهم بمصر حين أدركوا أن الخطر المحدق بهم سوف يكون شرقي الهبوب وبصفة خاصة بعد أن ظهر تصدى الموفق –

ولى عهد الخليفة المعتمد – لنزعتهم الاستقلالية فى مصر وجهوده المضنية فى سبيل تقويض دعائم هذا الاستقلال ، لذلك كان على الطولونيين تأمين المدخل الشرقي لمصر ، فقام خمارويه بن أحمد بن طولون بضم مجموعة جديدة من أبناء مصر دعم بهم قواته الثائرة واستعان بأبناء القبائل العربية فى منطقة الشرقية وأسماهم (المختارة)

وبعد وفاة خمارويه (٨٩٥م – ٢٨٢هـ) ولى أمر مصر ابنه أبو العساكر في (السابع عشر من ذي القعدة ٢٨٢هـ) فرأى فيه فقهاء مصر وقضاتهم سفاكاً للدماء لاستحلاله دم عمه (مضر بن احمد بن طولون) فأفتوا بعزله وخلفه شقيقه (هارون بن خمارويه) في (العاشر من جمادى الثانى ٢٨٣ هـ)، ولم يكن هارون هو رجل الساعة فطمع القرامطة في بلاد الشام ، وحاصروها (٩٠٣م–٢٩٠هـ) مما يدل على مدى الضعف الذي آلت إليه حال مصر(حيث كانت الشام تحت الحكم المصري آنذاك) على يد أحفاد أحمد بن طولون ووقف الخليفة العباسي المكتفى في بغداد على جلية الأمر فى مصر فأرسل أسطولاً ليعيد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ويظفر الأسطول العباسي بنصر ساحق على الأسطول المصري عند تنيس(التي كانت مدينة عامرة أمر الملك الكامل محمد بهدمها وتخريبها سنة ٦٢٤هـ حتى لا



ينزل الصليبيون بها وبذلك زالت من الوجود مدينة كانت من أكبر المدن الصناعية في مصر الإسلامية) . وزالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ثمانية وثلاثين عاماً عادت بعدها إلى مكانها القديم من الدولة العباسية .



ولما بلغ أمر الهزائم الطولونية مسامع الأمير الطولوني " هارون بن خمارويه " فر هارباً إلى بلدة العباسة بالشرقية حيث لقي حتفه على يد عماه (عدى وشيبان) اللذان اتفقا على قتله لاستمراره في لهوه وسكره فتم ذلك في ليلة (٢٠ من صفر سنة ٢٩٢ هـ) [٢٠] ولقد جاء هروب الأمير الطولوني (هارون) إلى بلدة العباسة دليلاً على ما كان لتلك البلدة من منزلة في نفوس أحفاد ابن طولون حتى في أيام محنتهم ومن هناك أخذ يكاتب العمال والقادة مذكراً إياهم بجده أحمد ووالده خمارويه ،طالباً وقوفهم معه ،ولكن عبثا ما حاول.

وأثارت أعمال التخريب والتدمير والحرائق التى أشعلها محمد بن سليمان الذي ولاه الخليفة العباسي مهمة القضاء على الطولونيين حفيظة الشعب المصري وامتلأت صفحات الكتب بالأشعار التى ترثى الدولة الطولونية وأعمالها وتحسر الشعراء على أيامها الغابرة [٢١] ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الأشعار الشعبية صدى في نفوس المصريين فحاول بعضهم أن يعمل على عودة الروح في أوصال الدولة الطولونية .

فقامت ثورة شعبية قادها أحد أبناء مصر ويدعى (ابـن الخلـيج) الذي ما لبث أن وجدت دعوته كثيراً من الأنصار المصريين وتوجـه نحو الشرقية قاصداً العباسة [٢٢] واستمر (ابـن الخلـيج) علـى عرش مصر سبعة أشهر واثنين وعشرين يومـاً [٢٣] .ولا يمكـن أن تفسر هذه الانتصارات السريعة والمتلاحقة لجندي مصري صغير مثل (ابن الخليج) إلا بدعم الشعب المصري له وتحمسه لفكرة الثورة التى أعلنها ضد الدولة العباسية التى قضت على دولة لها فى مصر طـابع قومي [٢٤].

وبعد أن أُقصِى (ابن الخليج) عن حكم مصر ، اختلف عليها ولاة من قبل العباسيين استبد بهم الجند وأصحاب الخراج وضـاع سـلطان أولئك الولاة بين جشع الجند فى طلب المال وضن عمال الخـراج بـه على الولاة ، فلا عجب أن تكون مصر أثناء هذه الفترة نـسياً منـسياً تغط فى سبات عميق إلا من الدسائس التي يدبرها الجند وأعوانهم فيقع في حبائلها الولاة الذين ظلت أمورهم معلقة بيد رجال الجيش إلـى أن ولى مصر من قبل الخليفة العباسى " الراضـي " محمـد بـن طغـج الإخشيد والذي بدأت علاقة الشرقية بالإخشيديين فى أثناء تولى محمـد الإخشيد حكم الحوف الشرقي مضافاً إليه الحوف الغربي (اصـطلاح جغرافي للأراضي الواقعة إلى الغرب من فرع رشيد) ، ولقد أصـبح والياً للحوفين فى عهد والى مصر تكين [٢٥] .

وبعد أن آل أمر مصر للإخشيديين أنشأ محمد الإخـشيد حكومـة مستقلة قوية مهيبة الجانب يخشى الخليفة بأسها لدرجة أثارت حفيظتـه

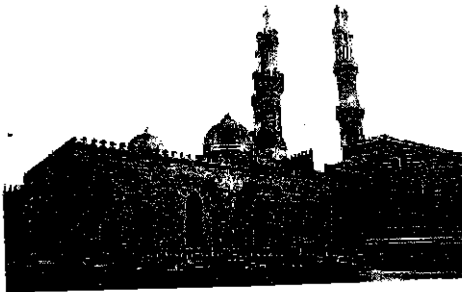
وغضبه على الإخشيدي فعين له منافساً بمصر وهو (محمد بن رائـــق) الذي وهب له الخليفة مصر على الرغم من وجود الإخشيد بها ، وبينما يهم ابن رائق بالحضور إلى مصر لتسلمها خــف الإخــشيد لملاقاتــه واتخذ لنفسه ولجيشه من الشرقية قاعدة انطلاق نحو العريش حيث هزم ابن رائق ومن التف حوله .

وبعد وفاة الإخشيد تولى بعده ابنه (أنوجور) ولما كان لا يزال صغير السن صار أستاذه (كافور) مدبر مملكته والذي ما لبــث أن أصــبح حاكم مصر الفعلي بعد موت أخر أبناء محمد الإخشيد ، وقلده الخليفــة العباسى حكم مصر (بلقب أستاذ مصر وممتلكاتهــا) ومــا هـــى إلا سنوات قلة ويتوفى كافور سنة (٩٦٨ م) ومصر آنذاك تمر بدور من أحلك أيام تاريخها بسبب انخفاض النيل واســتمرار القحــط واشــتداد الغلاء وكثرة الموتى وشيوع الفوضى فقد تعرضت الشرقية مثل بــاقي أجزاء مصر في أواخر العهد الإخشيدي إلي الكثيــر مــن الــضائقات الاقتـــصادية ،فقــــد وقـــع الغـــلاء فـــي ســـنوات (٣٣٨هـ،٣٤١هـ،٣٤٣هـ،)ثم أصاب البلاد الغــلاء الــشديد الــذي استمر تسع سنوات ابتداء من عام(٣٥٢هـ) بسبب نقص فيضان النيل وأدي ذلك إلي القحط والجدب واختفــاء القمــح واضطربت الأحوال وكثرت الفتن ونهبت الضياع .وقد أهملت الشرقية مثل باقي أجزاء مصر التي كانت تنتهكها الفتن والاضطرابات الداخلية التــي عصفت بالأسرة الإخشيدية وأركان الدولــة فــي



أواخر عهدهم والتي رافقتها الشدة الاقتصادية التي كانت سببا في ضعفها والتعجيل بسقوطها .

وأحكم التاريخ خطته وفرض حكمه فاستولى الفاطميون على مصر ، ولم تأت جيوشهم عن طريق الشرقية كما فعل أغلب الغزاة والفاتحين قبلهم ، ولكن جاءوا عن طريق الصحراء الغربية (٢٦). حيث كان من آثار ما حل بالعلويين من اضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم إلي بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة وتتجه أنظارهم فيما بعد إلي مصر بعد أن استقام أمرهم في المغرب الأقصى.



وهكذا بدأ العهد الفاطمي لمصر (سنة ٣٥٨ هـ / ٩٥٩ م) ، وما لبث الفاطميون فى مصر ينافسون العباسيين فى بغداد أبهة وثراء حتى نمت القاهرة وذاع صيتها كما شهدت الشرقية أحداثاً هامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ؛ حيث كانت بلبيس شاهد عيان على انتقال السلطة من الخليفة العزيز لابنه الحاكم بأمر الله فقد تقلد الخلافة بها يوم الثلاثاء ٢٨ من رمضان عام ٣٨٦ هـ ؛ حيث توفى الخليفة العزيز بها ، وظهر اهتمام العزيز بالشرقية فى إنشاء عدة قصور بها ، وإليه تنسب بلدة العزيزية بمركز منيا القمح بالشرقية ، وكذلك عزيزية الكفور بناحية

الكفر القديم بمركز بلبيس كما ينسب إليه أيضاً الجامع العزيزى بمدينة بلبيس [٢٧] .

وتنكر الزمان لخلفاء الدولة الفاطمية فى النصف الأخير من حياة دولتهم فضعف سلطانهم وأصبحت نهباً لمن ولى الوزارة ممن قست قلوبهم وأصبحت الوزارة شبه وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وجرت هذه الظاهرة الغريبة فى أذيالها كثيراً من الدسائس والمؤامرات والثورات والفوضى فى مصر [٢٨] .



حدود الدولة الفاطمية

واستمرت أحوال مصر كذلك حتى الفصل الأخير من الرواية الذي أسدل بعده الستار على عهد الفاطميين ، وتألق نجم صلاح الدين بعد ذلك على مسرح السياسة المصرية ، وإنما نقصد بالفصل الأخير من الرواية التى مثلت الفوضى والاضطراب ذلك النزاع بين الوزيرين المصريين شاور وضرغام الذي أمتد لظاه خارج حدود مصر إذ عول كل منهما – إمعاناً فى الكيد لخصمه – على إن يستعين بجيوش غير مصرية للفتك بمنافسيه ، وما هم فى الواقع إلا عشيرته وذوى قرباه وبنى جلدته ووطنه متناسياً كل مصريته ضارباً بكل ما أمامه عرض الحائط سوى كرسى الوزارة والحكم حتى دفع كل منهما – ثمناً لذلك العقوق – حياته رخيصة على سيوف من طلب العون منهم ، وتنهار الخلافة الفاطمية لتصبح مصر نقطة تحول

محورية فى حياة قائد من الأكراد يُدعى : صلاح الدين الأيوبي ليؤكد التاريخ أن مصر قد صنعت لهؤلاء الحكام جميعاً أكثر مما صنعوا لها وأن هؤلاء الذين أتوا من الخارج لم يصنعوا تاريخ مصر كما يقال بل مصر صنعت تاريخها وصنعتهم هم أيضا.وقد رأينا كيف دخل (عمرو بن العاص) مصر قائداً عادياً وخرج منها من بناة الدول ومصر جعلت من الكثير منهم من صناع التاريخ وماذا صنع أحمد بن طولون –مثلاً- لمصر ؟ وماذا كان يستطيع محمد بن طغج الإخشيد أن يصنع لها بدونها ؟ وصلاح الدين الأيوبي من كان يسمع به قبل أن يدخل مصر ؟ ويخرج منها قائداً يخشى بأسه العالم !!



هوامش المدخل

(١) فتحي خليل : **نضال الفلاحين** ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧ ، ص ٦٠ – ٨٠ بتصرف . وأنظر: محمد مورو : **الحركة الإسلامية فى مصر** ، طبعة أولى ، الدار المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٤ ،

ص ١٠١ ، ١٠٢ . وانظر: أحمد خاطر ، **مقدمة ديوان فريد طه** ، طـ١ الزقازيق ١٩٩٩م بتصرف .

(٢) جون ولسون : **الحضارة المصرية** ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة النهضة ، بدون تاريخ ، ص ٨٩ ، ص

٢٥٩ ، ص ٣١٠ .وانظر:مختار السويفي :**مصر والنيل في أربعة كتب عالمية** ،ط٣،الدار المصرية اللبنانية ،القاهرة١٩٩٦م ،ص١١٢.

(٣) جمال حمدان ، **شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان** ، كتاب الهلال ، يوليو ١٩٦٧ ، العدد ١٩٦.

(٤) انظر : ناصر الأنصاري:**المجمل في تاريخ مصر** ، الطبعة الثانية ،دار الشروق،القاهرة ١٩٩٧ص٩٦.

(٥) جريدة الأهرام ١٩٩٩/٩/٣ .وانظر :عبد الحليم نور الدين:**كنوز أثرية في طي النسيان** جريدة الأهرام عدد٢٠٠٢/٤/١٤م.

(٦) Ammar . Abbas . M , Racial Elemnents in the North – Eastern Province of Egypt , (Journal of the Royal African Society , 1941 – 1942) P . 7 .

(٧) أحمد السيد شحاته : **الحوف الشرقي من الفتح العربي حتى نهاية الدولة الفاطمية** ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب الزقازيق ، ص ٣٥٨ .وصفحات متنوعة.

(٨) المقريزى (تقي الدين أحمد بن على) (ت ٨٤٥ هـ) : **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الأول، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ، ص ٨٠ وصفحات متنوعة.

(٩) المقريزي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٨٠ ،٨١.

(١٠) ابن عبد الحكم (ت٢٥٧هـ): **فتوح مصر وأخبارها** ،تحقيق :علي محمد عمر طبعة الثقافة الدينية ،القاهرة ٢٠٠٤م ص ١٤٤ .

(١١) عزازي علي عزازي:**قضايا الإبداع والرؤى المعاصرة**،مطبوعات مؤتمر الشرقية الأدبي ٢٠٠٢م.وانظر: نبيل مصيلحى :**زهور في بستان الإبداع** مقال ضمن " كتاب " **التراث بين القطيعة والتواصل** " إصدار هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٥م .

هوامش الفصل الأول

(١) بتلر (الفرد – ج): **فتح العرب لمصر** ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، الجزء الأول ، ص ١٧٥ .

(٢) **الصالحية** : أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب بالشرقية ، وأنشأ بها قصراً وجامعاً وسوقاً سنة ٦٤٤ هـ (المقريزي ، **الخطط** ، الجزء الأول ، ص ١٨٤) .

(٣) بتلر (الفرد – ج) : فتح العرب ، مرجع سابق ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) عمرو عبد العزيز منير : **العمران فى مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة فى كتابات الرحالة** ، رسالة **ماجستير** غير منشورة ، آداب الزقازيق ، ٢٠٠٤ ، ص ٦٨ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : **تاريخ الإسلام** ، الجزء الأول ، ط ١٢ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ١٩٢

(٦) إبراهيم والى : **مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية سنة ١٩٤٠** ، ص١١٥وصفحات متنوعة.

(٧) المقريزى : **الخطط** ، ج ١ ، ص ٣٠٢ ، الكندي : **الولاة** ، ص ٧٤ .

(٨) أحمد شحاتة : مرجع سابق ، ص ١٢١ .

(٩) الحوف الشرقي : مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

(١٠) أحمد شحاتة سرحان : **نفس المرجع السابق** ، ص ١٢٥ وصفحات متنوعة بتصرف

(١١) ابن تغرى بردى : **النجوم الزاهرة** ، ج١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(١٢) المقريزى : **الخطط** ، ج ١ ، ص ٣٠٨ وما بعدها

(١٣) المقريزى : **الخطط** ، ج ١ ، صفحات متنوعة .

(١٤) المقريزى : **الخطط** ، ج ١ ، ص ٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(١٥) **مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية** ،العدد السنوي ١٩٣٩م، مرجع سابق ، ص ٨١ . وصفحات متنوعة.

(١٦) المقريزى : **الخطط** ، ج ١ ، ص ٨١ ، ٣١١ .

(١٧) المصدر السابق ، **ذات الصفحات** .

(١٨) أحمد سرحان : **الحوف الشرقي**، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

(١٩) محمد عبدالله عنان : **مصر الإسلامية** ، مكتبة الأسرة ١٩٩٨ ، ص ٩٧ .

(٢٠) المقريزى :**الخطط** ، مصدر سابق ، نفس الصفحة .

(٢١) الكندي: مصدر سابق ، ص ٢٥٠ .

(٢٢) أحمد شحاته : مرجع سابق ، ص ١٨٢ .

(٢٣) أحمد حسين : **موسوعة تاريخ مصر** ، ج ٢ ، ص ٤٩٨ .

(٢٤) حسن محمد و سيدة كاشف : **مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين** ،طبعة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، وانظر احمد شحاته : **مرجع سابق** ، ص ١٨٣ .

(٢٥) ابن تغرى بردى ، **النجوم الزاهرة** ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢٦) سعيد عاشور و عبد الرحمن الرافعي : **مصر فى العصور الوسطي** ، طـ ١ ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص١٩١،١٩٠ .

(٢٧) محمد رمزي : **القاموس الجغرافي** ، قسم ٢ ، ج ١ ، ص ١٣٨ ، قسم ١ ، ص ٨٤ .

(٢٨) أحمد حسين : **موسوعة تاريخ مصر**، مرجع سابق ، ص ٥٩١ .

القسم الثانى

ثورات الشرقية في العهدين الأيوبي والمملوكي

* أولاً: الشرقية فى العهد الأيوبى

(٥٧١ - ٦٤٨هـ / ١١٧٥ - ١٢٥٠م)

بينمـا مـصر ترسـف تحـت نيـر الـشهوات الشخصية ، وبينما حكام مصر فـى ضـلالهم يعمهـون ، إذ بشبح الحروب الـصليبية الـذى كـان قـد لاح فـى الشرق يتهدد مصر وينذر بالويـل والثبـور ويـرى فـى منـاجزة الـوزيرين شـاور وضـرغام خيـر فرصة لأن يـدمغ انتـصارات الفرنجة فى الـشرق



بوضع أغلالهم فى أعناق مصر، فيؤكـدون بـذلك نجـاح أغراضهم فى تسويغ قتلنا .

ولولا ان للكنانة رباً يحميها لأدى ذلك النزاع بين وزراء مصر إلى أسوء العواقب ، ولتغير وجه التاريخ فى مصر والأمة العربية ، لذا يجب أن نسهب بعض الإسهاب فى هذا الدور من تاريخ مصر لأهمية النتائج التى ترتبت عليه من جهة ، ولأنه من جهة أخرى يلمس بشدة الموضوع الذى نحن بصدده فى كثير من نواحيه .

استعرت نيران الحروب الصليبية على أثر صيحة البابا أربان الثانى(اليهودي الأصل) (بمجمع كليرمون) فى السابع والعشرين من



نوفمبر ١٠٩٥م[١] الذي أثار فى الأمم الغربية روح الحرب الدينية ،وكانت شواهد التاريخ آنذاك مليئة بانقسامات حادة بل متعارضة بين الشعوب علي كل المستويات الإنسانية والثقافية والحضارية والدينية ،هذه الأنقسامات التي وصلت أحياناً إلي درجة من درجات الصدام أمام صراع القوى والمصالح ، وأخذت هذه الأنقسامات أشكالاً وألواناً كثيرة شملت الجوانب الثقافية والحضارية ، وكان أشدها خطراً

الانقسامات الغقائدية وما تركته من رواسب صليبية لاتزال قائمة علي فكرة الصراع بين الإسلام والنصرانية عضدتها سياسة الغرب بمحاولاته في تغيير واقعنا قبل ان يغير فكرنا وتصوراتنا ثم يتهم فكرنا وتصوراتنا بالتخلف والهمجية.

كل هذه الشواهد التاريخية كانت تؤكد أن هذه الأنقسامات كانت عبئاً علي المسيرة الحضارية للإنسانية ،وأن العالم دفع ثمناً باهظاً لتلك الانقسامات خاصة بعد أن جنحت ودخلت في مناطق الصدام العسكري المسلح بين الحضارتين الإسلامية والنصرانية فيما يسمى بـ(الحروب الصليبية)التي تعد أخطر مناطق الانقسام في تاريخ الانسانية خاصة أنها أخذت طابعا دينياً هي أبعد ما تكون عنه فتكأكأ الجميع حول راية واحدة هي راية الصليب ، وشخصت جموعهم نحو الأراضي المقدسة ، حتى كان لهم ما أرادوا وانتزعوا بيت المقدس وكثيرا من مدن الشام ، واقترفوا من الجرائم والآثام بمسلمى تلك الأصقاع ما لا يصدق مثله إلا فى قصص الخيال مما جاء فى الواقع درساً مريراً يتلقاه الامراء المسلمون والعرب فى الشرق على مذبح الحروب الصليبية ، فكتبوه بدماء أشلائهم على قراطيس هى فى الواقع

البلاد التى أصبحت فى حوزة أعدائهم فى حركة استعمارية واستيطانية ، وما كان ذلك إلا نتيجة الفرقة تسعى بينهم ، والدسائس تمزقهم إرباً ، فما أشبه اليوم بالبارحة.

وكانت دولة عماد الدين زنكى التى ارتكزت على محور الموصل ، حلب هى السابقة التاريخية ، أو التجربة الأولى فى صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه فى ميدان الحرب[٢] ، ثم ابنه "**نور الدين محمود** " فأخذ الواحد منهما يسدد ما في جعبته من سهام إلى صدر الصليبيين حتى ذهب ريح الحملة الصليبية الثانية ، وهنا اشرأبت الأعناق إلى مصر كنانة الله في أرضه ، لا سيما أن حبل الامور فيها قد اضطرب فى يد الخليفة العاضد آخر خليفة فاطمى بين نزاع الوزراء على تولي الوزارة .

ومالبث أن شهدت الشرقية صراعاً حاداً بين عمورى الأول(ملك بيت المقدس الذي تولى سنة ١١٦٢م) والدولة النورية(دولة نور الدين محمود) حيث كانت مصر قد وصلت إلي حالة من الفوضى السياسية بعد أن سيطرالوزراء على الحكم بها فمهد ضرغام(الوزير المصري الفاطمي) للصليبيين طريق

الاتجاه إلى مصر بأن طلب إليهم الحضور إليها ليضمنوا له الوزارة دون شاور غريمه الذى استعان بدوره بسلطان حلب "**نور الدين محمود**" لنفس الأمر ، فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى كانت جيوش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبى على أبواب مصر تحارب جيوش ضرغام عند بلبيس [٣].فقد سلك شيركوه طريقا معروفا باسم (طريق الفوقانية)أو(طريق البدرية) وهو طريق صحراوي يمتد من أيلة إلي الصدر إلي السويس فى وسط سيناء ويبدو أنه سلك بع السويس الطريق المؤدي إلي وادي السدير (الطميلات)حتى وصل إلى تل بسطة (شرقي الزقازيق) بقواته وهناك التقى أسد الدين شيركوه بشقيق ضرغام ووالي بلبيس وحدثت معركة بينهما(أواخرجمادي الآخرة عام٥٥٩هـ) في

(تل بسطة) أدت إلى انسحاب (والي بلبيس) إلى القاهرة منهزماً حيث وصلها فى خامس جمادى الآخر وهو مصاب بجرح بينماأسر شيركوه عدداً من الأمراء ودخل بقواته مع شاور إلي مدينة بلبيس حيث اختفى والي بلبيس داخل المدينة ،فدلهم عليه بعض عرب كنانة فأسره شيركوه. ولم يلبث ضرغام ان قُتل فى آخر جمادى الآخرة من نفس العام ، وفاز شاور بما كان يبغى ولكنه بدأ يتنكر لحلفائه وناصريه ولم









يف بما تعهد لهم به من الاضطلاع بنفقات حملة " نور الدين " وتخصيص ثلث إيراد مصر لسلطان حلب كجزية سنوية وتناسى وعوده المعسولة لنور الدين ورفض أن يدفع المال المتفق عليه لشيركوه ،بل طلب منه سرعة الخروج من مصر(٤) ، وياليته اكتفى بهذا الموقف السلبى بل إنه مد يده إلى الصليبيين

واتخذ من أعدائه بالأمس أصدقاء ضد شيركوه الذى كان قد احتل بلبيس رداً على موقف شاور الناكر للجميل ، واستمر شيركوه فى فتح باقى البلدان المجاورة ، وأرسل صلاح الدين نائبا عنه فى تلك البلاد ؛ يجمع منها الخراج النقدى والعينى ، وتمكن صلاح الدين من السيطرة على الحوف الشرقى " اقليم الشرقية " ، بينما ظل شيركوه محاصراً للقاهرة وشاور بها . وبهذا تعتبر الشرقية أول امارة نورية تابعة لإمارة نور الدين محمود تأخذ بالمذهب السنى ، فى حين أن باقى الإقليم المصرى كان لا يزال على المذهب الشيعى الفاطمى .

تقدم عمورى ملك بيت المقدس نحو بلبيس أواخر شعبان وأوائل رمضان (سنة ٥٥٩هـ) ، وضيق الخناق على شيركوه فى بلبيس ، حيث أخذ شيركوه يقوى دفاعاته عن مدينة بلبيس ، وساعده عرب كنانة – الضاربون بالحوف الشرقى – مساعدة كبيرة بالأموال والسلاح ، وانضموا لصفوف قواته(٦).

وتمكنت قوات الصليبيين من محاصرة شيركوه داخل بلبيس لمدة ثلاثة أشهر ، ولم يرفع الحصار إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين أخذ يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين فى الشام ،

فصمم عمورى على العودة سريعا ، وفاوض شيركوه في الصلح – ولم يكن يدرى أنباء انتصارات نور الدين– فقبل واتفقا على أن تغادر جيوش الطرفين مصر. (وفى أكتوبر سنة ١١٦٤م – ٥٥٩هـ) غادر جيش شيركوه وتلاه جيش عمورى .

ولقد تحدث المقريزي عن مقتل عدد كبير من بنى كنانة بالشرقية الذين ساعدوا شيركوه فى صد حصار عمورى له ، وهذا يدل على المعاناة والآلام التى لقيها سكان الحوف الشرقى وعاصمته بلبيس(٧). ولم تقف مطامع الصليبيين والدولة النورية عند هذا الحد نحو مصر بل نرى الرواية لم تتم فصولها ، فقد عول نور الدين على أن يرسل جيشه هذه المرة غازيا بعد أن، تكشفت أمام رجاله مواطن الضعف فى مصر ، كما طلب شاور (وقد خاف مغبة مجئ قوات نور الدين محمود) من الصليبيين أن يرسلوا حملة إلى مصر لتمنع هجمات جيوش نور الدين ، ولم يلبس الجيشان السلجوقى(جيش نور الدين) والصليبيين أن هبطا مصر معا فى وقت واحد وعاد شيركوه إلي بلبيس وأخذ يقوي دفاعاته استعداداً للمقاومة ضد الخطر الصليبي المحدق بها وساعده أهل الشرقية مساعدة كبيرة بالأموال والسلاح ،فضلاً عن

انضمامهم إلـي صـفوف قواتـه ،بينمـا كانـت قـوات الحملة الصليبية بقيـادة عمـوري ،تحـث الخطـى فـي أراضي الشرقية حتى وصـلت إلـي فـاقوس فـي نفـس الوقت كان شاور قد خرج بقواته إلي بلبـيس حـين علـم أن عموري وقواته قـاربوا المدينـة ، والتقـت القوتـان على ابواب بلبيس في مواجهـة شـيركوه وبـرغم ذلـك فقد صمد شيركوه في الدفاع عـن بلبـيس مـدة الثلاثـة أشهر في قتال دائم صباح مساء ، وهنـاك دخـل اليـأس نفس عموري وبدأت المفاوضات بينهمـا وانتهـى الأمـر بأن تصالح الطرفان على إخـلاء مـصر منهمـا معـا ، واتفقا على عدم التدخل فـي شـئون مـصر أو الاعتـداء عليها (٨).وعاد الفرنجة إلـى فلـسطين أشـد مـا تكـون نفوسهم تحرقا إلى مصر وخيراتها، وعـاد شـيركوه إلـى الشام ، ولم يمض عام واحد علـى الهدنـة حتـى نقـض عمورى عهوده ليغزو مصر من جديد ناسـيا مـا أبرمـه من مواثيق بحجة أن لا عهد عليـه لكـافر(يقـصد أسـد الدين شيركوه) .وغادر عمورى عـسقلان فـي (٣٠ مـن يناير سـنة ١١٦٧م٥٦٢هـ) بقواتـه ، متوجهـا إلـى الشرقية ومصر للمرة الرابعة ، وفى أيـام قلائـل كانـت جيوش الصليبيين عند بلبـيس حيـث اسـتراح عمـوري بها شهراً وحمـل إليـه شـاور الأمـوال والهـدايا ثـم

غادرها في طريقــه إلـــى القــاهرة حيــث نــزل حولهــا ويبدو أن شيركوه قد اتخــذ طريقــه نحــو الجيــزة ثــم توالت الأحداث حتـــى وصـــل إلـــي الإســـكندرية ليجــد العون والمساندة ومرة أخرى ينتهي الأمـــر بعقــد اتفـــاق على أن يغادر الطرفان مصر في وقت واحد .

وفي جولة الصراع الأخير بين عموري وقوات نور الدين للاستلاء علي مصر خرج عموري الأول (ملك بيت المقدس) وأسد الدين شيركوه (قائد قوات نور الدين محمود صاحب دمشق)وكلاهما يمني النفس بالاستيلاء عليهما ولكن أسد الدين شيركوه كان أكثر تحرقاً إلي مصر لما رآه من تعاون شاور مع أعداء الأمة وهنا يضرب (الكامل) ابن الوزير شاور المصري المثل والقدوة للشاب العربي المصري الذي يقف ضد مطامع والده _ليس عقوقاً له_ بل لصالح الأمة الإسلامية والعربية وجاهر والده بذلك حين عزم شاور على قتل شيركوه مدعياً أنه إن لم يقتله فسوف يقتلهم شيركوه .فقال لوالده :"لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج"وهذا ابلغ دليل على أن هذا الشاب المصري (الكامل بن شاور) كان مدركاً للخطر الصليبي المحدق بالمنطقة وببلاد الإسلام.

وفي (منتصف المحرم سنة ٥٦٤هـ) اتجه عموري إلى الشرقية ووصل إلى أطراف بلبيس في أول صفر ، غير أن عمورى لاحظ تغييرا فى موقف المصريين من أهل الشرقية منه ، فقد أغلق الأهالى المدينة ، ولكنه استطاع فتح بلبيس بالقوة وأمعن فى أهلها فتكاً وقتلاً ولم يفرق بين مسلم ومسيحى[1] ، وتمت مجزرة هائلة كان أبطالها ممن يدعون أنهم جنود المسيح وفرسانه الذين ذبحوا كل من وقع فى أيديهم من الرجال والنساء والأطفال ، وهم الذين بفعلهم خالفوا تعاليم الكتاب المقدس الذى جاء به على لسان بولس الرسول: " **من أحب غيره فقد أكمل الناموس ... فالمحبة تكميل الناموس**" (**رومية ١٣: ٨,١٠**).

وخالفوا تعاليم الصلاة الربانية التى علمها السيد المسيح للجموع : " .. **واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا** .. " (**إنجيل متى ٦ : ١٢**).

.. وبعد . أين كان قول المسيح - عليه السلام - **من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا**". من تجييش الجيوش والتفنن فى الدمار والحروب ، الأمر الذى لازم تاريخ الغرب وترويجه لفكره وجوب الحرب التى يقتل فيها الملايين من غير



المسيحيين وغير اليهود- حتى يعود المسيح ويحكم .. فلو بعث المسيح ورأى الغرب المسيحى قديمه وحديثه لقال أنا لست مسيحيا ... !!

وبعد ما رأى شاور فظائع الفرنجة ،وبهت بما حدث عول على أن يصد تيار عمورى فأحرق الفسطاط فى وجهه وظلت بها النيران أربعة وخمسين يوما حتى



تركها قاعا صفصفا ثم أخذ فى مفاوضة عمورى وعرض عليه المال بقصد كسب الوقت ريثما تأتى النجدة من لدن نور الدين الذى استعان به الخليفة العاضد بنفسه حتى أرسل إليه خصلاً من شعور نساء قصره داخل خطاب رقيق جاء فيه: "**هذه شعور نسائى من قصرى يستعن بك لتنقذهن من الإفرنج**". فلم يسع نور الدين إلا أن أرسل جيوشه تحت إمرة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فوصلوا بمصر فى (ربيع الأول ٥٦٤ هـ)، وفى نفس الوقت اتخذ

عمورى خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس ، ثم التقدم نحو بلبيس ، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة قوات شيركوه وهى قادمة متعبة من الطريق قبل التحامها مع القوات المصرية ، ولكن أعلمه جواسيسه بأن شيركوه قد تقدم فى طريقه للقاهرة ، وفى (٣ يناير ١١٦٩م) (ربيع الأول ٥٦٤هـ) سار الجيش الصليبى فى طريقه لفلسطين ، بعد أن غادر فاقوس[١٠].

وقد ذكر أبو شامة أن عمورى قد قسم أسرى بلبيس إلى فرقتين بعد اخراجهم إلى ظاهر المدينة ، وأخذ نصفهم لنفسه وأطلق النصف الباقى لجنوده ، وقيل إن عدد الأسرى الذين خرج بهم عمورى من مصر أثناء عودته بلغ اثنى عشر ألف أسير ، وقد ورد أن أسرى بلبيس هؤلاء ظلوا فى أسر الصليبيين طوال أربعين عاما، وأن أكثرهم مات فى الأسر ، وحيث تولى صلاح الدين مصر أوقف موارد بلبيس والشرقية على افتداء أسراها ، كما سامح أهالى بلبيس من دفع الخراج المقرر عليهم حتى آخر أيامه . وهذا يدل على مدى تقدير صلاح الدين لدور أهالى بلبيس واستبسالهم فى التصدى للهجمات الصليبية الشرسة[١].

ويبدو أن عمورى حين سار بقواتـه البرية نحـو مصر قادما من عسقلان أرسل قـوة بحرية قوامهـا ثلاثون مركبا حربيا ، للمعاونة فـى الاستيلاء علـى مصر وأن هذا الأسطول انحدر إلى بحيرة تنيس(وهـي مدينة مندثرة) واستولى علـى المدينة ونهبوهـا ، ثـم استمر انحداره فـى النيـل باتجـاه القـاهرة ، لكنـه لـم يتمكن من التقدم أكثر ممـا وصـل إليـه بـالقرب مـن ناحية " **منية زفتى** " مقابل " **منية غمـر** " الواقعـة علـى الشاطئ الشرقى لفرع دميـاط وذلـك بـسبب العراقيـل التى وضعها المصريون مـن أهـالى الحـوف الـشرقى فى مجرى النهر وتمكنوا بـذلك مـن اجبـار الأسـطول الصليبى على العودة بمراكبه فـرارا ، وقـد أكـد ذلـك المؤرخ وليم الصورى(١٢).

وهكذا أثبـت أهـالى الـشرقية تحـديهم لجحافـل الصليبيين حيثما حلوا- فى البر أو البحـر- وكـان مـن نتيجة ذلك أن نـصب الـصليبيون لهـم المـذابح حيـث تمكنوا منهم كما سبق ذكرنـا . وحـين دخـل شـيركوه القاهرة وقابله المـصريون بالترحيـب إلا شـاور الـذى عاوده مكره القـديم ففكـر فـى أن يبيـت النيـة لجـيش المسلمين ، ولكن الله رد كيده فـى نحـره فقـبض عليـه صلاح الدين وأسـره . ولمـا أحـاط الخليفـة العاضـد

بالأمر علما أرسل من يطلب رأس شاور ثم تابع الرسل خشية أن يفر " وجيئ برأسه إلى الخليفة الفاطمي العاضد الذى جن فرحا للتخلص من غدار أثيم في (أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/يناير ١١٦٩م).

رلية العباسين بالقاهرة. مأخوذة عن رسمة لمقامات الحريري





مقامات الحريري، نسخة بيد أبو الفداء بن إسحاق - كاتب المخطوطة و لعه ولصع الرسومات أيضاً - تم إنجازها في تاريخ 29 مارس 1334م مصر - المكتبة الوطنية النمساويه فيينا، مخطوط رقم A.F.9 .

وعهد العاضد بعد ذلك بالوزارة إلى شيركوه ، ونظراً لحرص شيركوه على الدفاع عن الشرقية ، جعلها بأسرها اقطاعا لقراقوش(كان خادماً لأسد الدين شيركوه وكان خصياً أبيض اللون)(١٤) – وجنوده البالغ عددهم ٣٠٠٠ جندى فى مقابل حماية المدخل الشرقى للبلاد ضد الصليبيين.ومن بعد شيركوه تولى صلاح الدين الوزارة الذى قاد انقلاباً سياسياً في(عام٥٦٧هـ/١١٧١م) للقضاء على الخلافة الفاطمية وأعاد الخطبة للخلافة العباسية فى

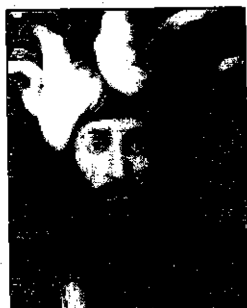
بغــداد ،وأمــر الخطبــاء بالــدعوة للخليفــة العباســي "المستضيئ"في السابع من المحرم وأعــاد ارتــداء الــسواد شعار العباسيين وخطب لــصلاح الــدين علــي المنــابر بعــد الخليفــة العباســي ونــور الــدين وتــوفى الخليفــة الفاطمي "العاضد" بعد هذا الإنقــلاب بثلاثــة أيــام دون أن يسمع بزوال ملكه وسقوط دولته .

وظلت الشرقية طوال عــصر الأيــوبيين مركــزا للنــشاط الحربــى والــسياسى، ففــى(عــام ٥٧٣هـــ/ ١١٧٧م) خرج صلاح الدين من بلبيس محــاولا تحريــر عسقلان من الفرنجة ولكنــه لــم يــستطع ، وعــاد ثانيــة إلى مصر ، وفى نفس العام أغار الــصليبيون علــي بلــد فاقوس لكنهم لم يحتلوها ، وأغــار الفرنجــة علــى اقلــيم الشرقية (عام ٥٨٠هـــ/١١٨٤م) وخاصــة بلبــيس ممــا اضطر الأهالى هناك إلى الجلاء عــن المدينــة وعــرف ذلك باسم " **الهجــة الكبــرى** " غيــر أن الــصليبيين لــم يدخلوا بلبيس وإنمــا أســروا مــائتين وعــشرين رجــلاً واستولوا على عدد من الأغنام.

وتكرر خروج القــوات المــصرية مــن بلبــيس ، لمساعدة صلاح الدين فــى حروبــه ضــد الــصليبيين ، كمــا حــدث ســنة ٥٨٥هـــ/١١٨٩م – بقيــادة الملــك العادل ، وفــى ســنة٥٨٧هـــ/١١٩١م بقيــادة الأميــر

حسام الدين أبى الهيجاء ، وعام ٥٨٨هـ/١١٩٢ بقيادة ملك الدين شفيق الملك العادل وهى القوات التى خرجت لنجدة بيت المقدس(١٥).

وفي السابع من يناير عام(٥٨٩هـ/١١٩٣م) يسجل فيضان النيل بمقياس الروضة (٨قيراط و١٨ذراع) وكان صلاح الدين بدمشق آنذاك على أكمل ما يكون من الصحة وكأن الدنيا قد جمعت في يده والقدر يخدمه بانطلاقه من مصر لبلوغ مرامه ولكن تجري الرياح بما لاتشتهي السفن . فإذا بالعافية قد شمرت الذيل والمنية قد دنت وإذا حضر أمر الله فلا مرد لقضائه وعجز الطب عن شفائه بعد أن لحق به كسل عظيم ورعشة شديدة لينتقل إلى جوار ربه في يوم (١٦صفر ٥٨٩هـ/١١٩٣م)



وبعد عصر صلاح الدين .. شهدت الشرقية النزاع الذى حدث بين الملك العادل (شقيق صلاح الدين) وابن أخيه (الملك الأفضل صاحب دمشق) ضد السلطان (الملك الغزيز عثمان) سلطان مصر عام (٥٩١هـ/١١٩٥م) ويرجع سبب ذلك ، لخروج الأمراء الأسدية عن طاعة السلطان الملك

العزيز الذي كان قد حل اقطاعاتهم لإقامتهم بدمشق ، فحرضوا العادل والأفضل على غزو مصر وانتزاعها من الملك العزيز ،ويبدو أن الملك العادل وافق على ذلك لشدة قوة الأمراء الأسدية وخشيته من أن يستأثروا وحدهم بمصر في حالة إسقاطهم لحكم الملك العزيز . وحاصر الملك العادل بلبيس(*) بعد تحصن العزيز بها إلى أن تم الصلح بينهما .

(*) **بلبيس** : فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ أو ١٩هـ ، وجاءت فى قاموس أقلاديوس Plebes ، بلبيس أو مدينة الخندق مدينة بمصر السفلى بقرب سلسلة جبل العرب منفصلة عن الصحراء المؤدية إلى البحر الأحمر كائنة بالشرقية الآن وكانت دار الأسقفية وآثارها قليلة وهى توجد شمال شرقى بلبيس الحالية ، وذكر المقريزى فى خططه أن بلبيس فى التوراة هى أرض جاشان وهى من بلبيس إلى العلاقمة وفيها عدة بساتين وأهلها ذوو يسار ونعم سنية ، وورد فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الارشاد من أعمال الشرقية وردت فى معجم البلدان بلبيس (بفتح الباء) وقال العامة وبلبينس مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام . وجاء ذكرها فى التوراة " **أرض مصر قدامك فى أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك ليسكنوا فى أرض جاشان** " (سفر التكوين اصحاح ٦/٤٧) : " **يقول ابنك يوسف قد جعلنى الله سيدا لكل مصر انزل إلى لا تقف فتسكن فى أرض جاشان وتكون قريبا منى أنت وبنوك** " **(سفر التكوين اصحاح ٤٦ آية ١٠)**.

ويقال أن كلمة **بلبيس** تتكون من لفظين أو كلمتين هما : بعل وبس (١٩) .

-وكانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقى أيام العرب ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية إلى آخر الحكم الجركسى (دولة المماليك) ثم قاعدة

ثم شهدت الشرقية معركة بين العادل وابن أخيه الأفضل وذلك بعد وفاة الملك العزيز عثمان سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وتحصن الأفضل في بلبيس ولكن بعد علمه بوصول عمه العادل إلى قطيا سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م)أسرع لملاقاة عمه عند الخشبى – على مدخل وادى السدير – ولكن تخلى عن الأفضل بعض جنوده ،الأمر الذي جعله ينسحب إلى بلبيس ثم تمركزفي منطقة السائح – عند فاقوس– والتقى مع عمه في معركة سنة(٥٩٦هـ/١٢٠٠م) ، انتهت بهزيمة جنوده وهروبه للقاهرة ليلا واستسلم لعمه وترك مصر[١٦].

وعلى أرض الشرقية أيضا جرت أرهاصات ميلاد الدولة المملوكية ، وعند سفح الشرقية وفي ذات الوقت عُزف لحن الختام وجرت آخر حلقة من حلقات نهاية الدولة الأيوبية (٥٧١-٦٤٨هـ/١١٧٥-١٢٥٠م). وذلك في معركة وادى السدير يوم (الخميس ١٠ ذى القعدة ٦٤٨هـ) ، فبعد خلع شجر الدر نفسها من سلطنة المماليك لرفض الخليفة

الولاية الشرقية إلى(سنة ١٨٣٢ م) وفى تلك السنة أصدر محمد على والى =مصر أمرا بنقل ديوان الشرقية والمصالح الأخرى إلى مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المديرية [٢٠].

العباسى لتولى امرأة أمر المسلمين ، ولثورة الرأى العام المصرى ضد شجر الدر ورفض حكام بلاد الشام من بنى أيوب الاعتراف بها تولى سلطنة الدولة المملوك المعز أيبك فى(ربيع الآخر ٦٤٨هـ/ يوليو ١٢٥٠م) وأصبح الأيوبى الأشرف موسى شريكا للمعز أيبك فى الحكم .















ولكن نادى بعض الناس وعلى رأسهم الأمراء فى غزة بطاعة الملك (المغيث عمر بن العادل) حاكم الكرك وحضر بعض أمراء الشام إلى الصالحية بالشرقية وأقاموا الخطبة للملك المغيث يوم(الجمعة الرابع من جمادى الآخر ٦٤٨هـ/ ٣سبتمبر ١٢٥٠م) ، بالإضافة أنه قد سبق ذلك ثورة قبائل الشرقية

والبحيرة ضد المماليك بزعامة " **حصن الدين بن ثعلب** " واستطاع المماليك القضاء على ثورة حصن الدين بن ثعلب.

واستعد المماليك للقاء الملك الناصر عند الصالحية اعتقادا منهم أنه سيمر عليها ،فإذا بالملك الناصر يحتل قطيا يوم(السبت ٢٨ يناير ١٢٥١م) وواصل السير إلى كراع(*) ، وهى قريبة من السدير فوصلها في(٣٠ يناير ١٢٥١م) ، ثم قام الملك الناصر بنقل قواته من الصالحية إلى سموط(*) ، وأصبحت القوات الأيوبية فى مواجهة جيش المماليك وانتهت المعركة بهزيمة المماليك وبقى الناصر بكراع وتقدم جنوده نحو العباسة (*) ، وبعد عدة مناوشات

(*) **كراع** : قرية من توابع مركز أبى حماد بمحافظة الشرقية وقد اندثرت ومحلها عزبة السملوتى، انظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزى ، ص٣٥٦ (٢١).

(*) **سموط** : قرية اندثرت ومحلها عزبة تل سمامود غربى محطة القصاصين وعلى بعد ٤ كيلو مترات منها. انظر محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ص ٣٥٦.

(*) **العباسة** : سميت بهذا الاسم نسبة إلى عباسة بنت أحمد بن طولون حين خرجت تودع بنت اخيها قطر الندى لتزف للخليفة المعتضد العباسى فضربت عباسة خيامها بهذا الموضع ثم بنت قرية سنة= =٢٨١هـ/٨٩٤م

انتصر المعز أيبك ، وحين حاول دخول العباسة لم يستطع لوجود جنود الناصر يوسف بها فاتجه نحو العلاقمة(*) ، ثم ذهب إلى بلبيس ودخل القاهرة وحبس الأمراء المأسورين من بني أيوب بالقلعة ، ورغم انتصار المعز أيبك في معركة وادى السدير . وتدخل الخليفة المستعصم العباسي لإنهاء الخلاف بين الملك الناصر والمماليك ، وكان الصلح (سنة ١٢٥٢م) ، وهكذا كانت معركة (وادى السدير) لحن الختام الحزين للدولة الأيوبية وثبتت أقدام المماليك أكثر من قرنين ونصف من الزمان.

وسميت عباسة باسمها . وولد بها الملك الأمجد تقى الدين عباس بن العادل أبى بكر بن أيوب(٢٢).

(*) **العلاقمة** : وردت في معجم البلدان بأنها بليدة(بلتصغير) في الحوف الشرقي في أرض مصر دون بلبيس وكانت العلاقمة قاعدة لمركز الصوالح وفي سنة ١٨٩٦ نقل منها ديوان المركز إلى ههيا لوجودها على السكة الحديدية(٢٣).

* ثانياً : الشرقية والعهد المملوكى (٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م).

كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التى انتهت سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) بأسر الملك لويس التاسع وتبدد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وجريح وأسير عقب الهزيمة المخزية التى أوقعها به الجيش المصرى فى المنصورة بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك التى حكمت مصر فى الفترة (٦٤٨هـ/٩٢٢هـ - ١٢٥٠/١٥١٧م) [٢٤] لتدخل مصر حقبة جديدة من تاريخها تحت حكم هؤلاء الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامى لا سيما فى مصر والشام ليؤسسوا دولة بدأت بلعبة تولت خلالها شجر الدر السلطنة وتلقبت بعصمة الدين أم خليل واستمرت حتى وصلت إلى طومان باى الذى يعتبر آخر السلاطين.



ماتت أول سلطانة لهم بالقباقيب وظلت ملقاة فى خندق القلعة حتى سرق اللصوص ملابسها

الداخلية ومات آخرهم حين اهتز جسده في مشنقة على باب زويلة فما أشبهه البداية بالنهاية [٢٥].

وفي خضم ذلك قامت الشرقية بدور هام في الحياة السياسية والحربية في عصر سلاطين المماليك،حيث كانت الشرقية هي مركز الثقل بالنسبة لباقي القبائل العربية بمصر ، ولكثرتهم العديدة في هذا الاقليم ، (ومن المعروف أن صلاح الدين أقطع عرب الشرقية اقطاعات بالشرقية في مقابل القيام بالخدمات الحربية في الجيش السلطاني ، حيث تعهدوا بتقديم عدد محدد من الفرسان ، كاملي العدة للمشاركة في المجهود الحربي) ، وعلى ذلك يمكن القول أنهم اشتركوا في الحملات التي خرجت من بلبيس أعوام (٥٧٣هـ/ ١١٧٧م) ، (٥٨٢هـ/١١٨٦م) (٥٨٥ هـ/ ١١٨٩م) [٢٦].

وقد كافأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب عرب الشرقية بأن منح لقب أمير لـ(معبد بن منازل) ، من قبيلة جذام ، كما تعهدت القبائل العربية بالشرقية بتقديم الأبل والخيول لمراكز البريد ، والسهر على حراسة الادراك (جمع الدرك وهو الطريق)، ونقل الغلال [٢٧].

ولكن منذ مقتل تورانشاه وقيام الدولة المملوكية ، اتصل عرب الشرقية بالملك الناصر يوسف صاحب دمشق وطلبوا منه الحضور إلى مصر للقضاء على حكم المماليك ، ويذكر أن الناصر يوسف استطاع الهروب – بعد فشل معركة وادى السدير – بمساعدة شخص عربى من الشرقية يدعى نوفل البدرى . وقد كان (عرب الشرقية وأهلها) يتعاونون تعاونا مخلصا عندما تتعرض البلاد للخطر ، فقد اشتركوا مع زملائهم عرب وأهل الغربية مع المماليك ضد التتار فى موقعة عين جالوت (سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ، فى عهد السلطان(سيف الدين قطز) ، وقدموا الكثير من الأموال ، وكانت الصالحية مركزا لتجمع الجند الذين انطلقوا للقاء العدو أغسطس ١٢٦٠م [٢٨].

وقد ظل عرب الشرقية يمثلون ثقلا سياسيا وحربيا هاما طوال عصر المماليك ، ولذا نجد أن المماليك كانوا يطلبون مساعدتهم عندما يشب الصراع بين بعضهم البعض ، فعند ما نشب الصراع بين يلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق(سنة ٧٩١هـ/١٢٨٨م) لجأ الأول لمساعدة الأمير (شمس الدين محمد بن عيسى) كبير احدى قبائل الشرقية حيث أكرم يلبغا أثناء وجوده بالصالحية ،

وحين هرب الناصرى إلـــى الزنكلـــون(*). وحـــدث بهـــا قتال بين بلبغـــا الناصـــرى ومعـــه خمـــسون فـــردا مـــن المماليك ضد منطاس انضم عـــرب قبيلـــة العايـــد لبلبغـــا لكنهم هزموا [٢٩].

واشـــترك عـــرب الـــشرقية مـــع المماليـــك ضـــد تيمورلنك حيث قدم(شيخ بنـــى وائـــل) ألفـــا وخمـــسمائة فارسا وتم اعـــدادهم للحـــرب(ســـنة ١٤٠٠م) ، وأبـــدى شيخ العرب(أحمد بن بقر) تعاونا مـــع الـــسطان قايتبـــاى عندما نفذ رغبة الـــسلطان وذلـــك بقتـــل خمـــسة عـــشر أميراً من المماليك الأسرى الذين تـــم أسْـــرهم فـــى خـــان يونس وكانوا في عهدة(الأمير الـــدوادار) وكـــانو مكبلـــين في الحديد فـــي أرجلهـــم،ولمـــا وصـــلوا إلـــي الخطـــارة استلمهم(أحمدبن قاسم بن بقر وذهـــب بهـــم جميعـــاً إلـــى فاقوس وقـــتلهم جميعاًتحـــت جميـــزة،وقطعـــت أرجلهـــم للحصول على القيـــود الحديديـــة ثـــم رمـــاهم فـــى بئـــر

(*) **الزنكلون** : من أعمال مركز الزقازيق الآن واســـمها الأصـــلى ســـنكلوم ووردت فى مباهج الفكر وفى تاج العروس بأن أسمها على لسان العامـــة زنكلون وعرفت بالزنكلون فى العهد العثمـــانى فـــوردت بـــضمن دفتـــر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـــ [٣٠].

خربة(١٤٩٥م)، بعد وصولهم للخطارة(*) ، وتعاون عرب الشرقية مع إخوانهم عرب الغربية والصعيد مع المماليك فى عهد قانصوه الغورى حين ذهب لحلب ابان الصراع الدائر بين اسماعيل الصفوى وابن عثمان حتى يمكن الدفاع عن البلاد .

وفى عهد المماليك قام العرب فى الشرقية وغيرها بثورات كثيرة وقتل منهم عدد كبير ففى (سنة ١٢٥٤م) أيام سلطنة المعز أيبك أنف (حصن الدين بن ثعلب) وهو من كبار العرب وقوادهم من سلطنة المماليك ،وثمة عبارة ينسبها المؤرخون إلي هذا الرجل وهي:(نحن أصحاب البلاد، بل وإنا أحق من المماليك بها ، وقد كفى أناخدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على هذه البلاد ". فأشعلوا نيران الثورة على إثر مقتل (توران شاه)(وهوابن الصالح نجم الدين أيوب) على يد المماليك ولكنهم انهزموا شر هزيمة (٣٢).

(*) **الخطارة** : تتبع مركز فاقوس ، عرفت بخريطة الحملة الفرنسية باسم الخطاطر (انظر محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ١ ، قسم ٢ ، ص١١٢) (٣١).

وقـــام المماليـــك (ســـنة ٧٩٠هــــ/١٣٨٨ م) بتسمير(صلب) أمير العرب بالـشرقية (علـى بــن نجـم) بالإضافة إلى عشرين شخصا مــن أكــابر قومـــه لقـتلهم اثنين من أبناء أحد كبار موظفى الــشرقية . كمــا فــرض بعض سلاطين المماليـك غرامــات ماليــة كبيــرة علــى زعماء القبائل بالشرقية ، كما فعلوا مع (ابــن بقــر) مــن قبيلة جذام و(ابن عبس العائــدى) كوسـيلة للقمــع (عــام ٧٩١هـ/١٣٨٩م)[٣٣].

واتبـــع المماليـــك أسـلوب العنــف أحيانــا حــين هاجموا عــرب(بنــى زهيــر) مــن قبيلــة جـذام وتـم اشهارهم(تجريسهم) على ظهـور الجمــال ، لكــن(بنــى زهير) تمــادوا فــى أعمــالهم التخريبيــة ، ولــذلك قــام السلطان برقوق (عــام ٧٩٣هـــ) بــالقبض علــى ابــن فضالة شيخ عرب بن زهير وضـــربه بالمقــارع وشــملت حركة القمع أيضا عرب بنى وائــل بالــشرقية حيــث تــم تسمير نحــو ٣٠ مــنهم ووضـــعوا البــاقين فــى ســجن الخزانة (عــام ٨٠٠هـــ/١٤١٥م) ، وحــاول الـسلطان المؤيد شيخ مقاومة عرب الشرقية وأرســل إلـيهم عــددا مــن الأمــراء فــى العــام التــالى (٨١٩هــــ/١٤١٦م) ونجحوا فى ذلــك ، واتبـــع الـسلطان جمقمــق أسـلوب الملاينة مــع عــرب الـشرقية وأرســل ســنة (١٤٤٥م)

زين الدين الاستادار(*) إلى بلبيس للنظر في شئون العرب بالشرقية(٣٤).

وفي عهد السلطان **قايتباى** أصدر أمر بشنق (قاسم بن بقر) أمير عرب جذام فشنق(سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) ، وقد قام المماليك بتعليق أمير العرب (سليمان بن قرطام) على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام (عام ٩٠٥هـ/١٥٥٠م) ، ولجأ السلطان قانصوة الغورى لأسلوب الردع والسلخ والشنق لزعماء بعض القبائل ، كوسيلة لاخماد ثوراتهم ، حيث شنق (عمر بن موسى النفعى) من عرب تعلبة ، وسلخ(أحمد بن شكر) وتم حشوة تبنا وأرسل للقاهرة ، وسلخ جلد (صالح بن قرطام) من بنى حرام ، فقام أهل قبيلته بقلع (جسر الحفاية) فساح على الأرض ، واستطاع السلطان قانصوة السيطرة على الشرقية بعد أن زود واليها بخمسمائة من المماليك(٣٥) ، وفي عهد الحكم العثماني قام عرب الشرقية وغيرهم من الفلاحين بثورات كثيرة تحت قيادة (ابن بقر)، وكثيراً

(*) **الاستادار:** هو لقب للذى يتولى تحصيل مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمثيل أوامره فيه وهو لفظ فارسى أحدهما (استد) ومعناها الأخذ ، ومعناها " المتولى للأخذ " (٣٨).

ما كانوا يهربون إلى فلسطين والشام.وتواتر هروب ابناء الشرقية ومصر في مدونات التاريخ حيث يقول ابن إياس في أحداث سنة(٩٢٧هـ/١٥٢٠م):"وأشيع أن الديوان مشحوت غاية الانشحات وأن ملك الأمراء عليه نحو ستين ألف دينار ديناً ..فحصل للفلاحين غاية الضررمن ذلك ورحل بعض الفلاحين من البلاد السلطانية من الظلم والجور"وذكر الرحالة (فولني الفرنسي) أنه شاهد المصريين في سوريا سنة(١٧٨٥م)أفواجاً وجماعات وقال إن أزقة صيدا وحيفا وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تعج بالمصريين وقد توغل نفر منهم في اتجاه الشمال حتى حلب وديار بكر).وفى عصر المماليك أصبحت بلبيس مركزا تجارياً هاما إذ وجد بها عدة فنادق للتجار الأجانب(٣٦) ، وكان الفندق فى بلبيس يتكون من طابقين وملحق به عدة حوانيت ومن فنادق بلبيس أحد الفنادق الموقوفة على " الرباط العلائى" نسبة للملك علاء الدين بن على بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. (٣٧)

وكان خط سير القوافل عبر الشرقية إلى بلاد الشام زمن المماليك كما يلى: (بلبيس إلى القرين(القرين تتبع مركز أبى حماد شرقية)إلى

الصالحية، إلى بئر الدويدار إلـــى قطيـــا . ومـــن قطيـــا (وهـــى آخـــر حـــدود الـــشرقية) إلـــى بئـــر المـــساعيد فالعريش). (٣٨)

وهكذا لعبـــت الـــشرقية دورا بـــالغ الأهميـــة مـــن النـــاحيتين الـــسياسية والحربيـــة فـــى عـــصر ســـلاطين الأيوبيين والمماليك لتواصل دورهـــا الفاعـــل فـــى العهـــد العثمانى وتلك قصة أخرى.

أسانيد القسم الثانى

١- قاسم عبده قاسم ، **ماهية الحروب الصليبية:** عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص١٠٣، ١٠٤.

٢- المرجع السابق ، ص١٧٨ .

٣- على السيد على بالاشتراك : **الأيوبيون والمماليك** ، **التاريخ السياسى والعسكرى** ، (عين للدراسات) ، الطبعة الثانية ١٩٩٦،ص٢٣.

٤- المرجع السابق ، ص ٢٥.

٥- محمد فتحى الشاعر ، **الشرقية فى عصرى السلاطين الأيوبيين والمماليك**، دار المعارف ، ط١٩٩٧ ، ص ص ٢٦ ، ٢٧ ، وللمزيد أنظر: نظير حسان سعداوى ، **نظام البريد فى الدولة الاسلامية** (القاهرة ،١٩٥٣م) ، ص١٤١ وما بعدها .

٦- على السيد على ، **الأيوبيون والمماليك** ، مرجع سابق ، ص٢٥.

٧- أحمد شحاته سرحان ، **دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية الدولة الفاطمية** ، ط جامعة الزقازيق،١٩٩٨/١٩٩٩م، ص٣٧١.

٨- المرجع السابق ، ص ٣٧٤.وللمزيد : انظر:أحمد السيد :**الحوف الشرقي** ،رسالة دكتوراة،آداب الزقازيق '١٩٩٥ ص:ص١١١_١٤٥

٩- نفسه ، ص ٣٧٨.مع صفحات متنوعة

١٠- محمد فتحى الشاعر ، **مرجع سابق** ، ص ص ٣٦ – ٣٧.

١١- أحمد سرحان ، **مرجع سابق** ، ص ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.

١٢- **نفسه** ، ص ٣٨٢.

١٣- محمد فتحى الشاعر ، **مرجع سابق** ، ص٣٧.

١٤- أحمد عبد الرازق ، **مصر الإسلامية**،ص ١٦٥.

١٥- محمد فتحى الشاعر ، **مرجع سابق** ، ص ص ٣٩ ، ٤٠.

١٦- على السيد على ، **الأيوبيون والمماليك** ، مرجع سابق ،ص٨٦.وانظر:عمرو عبد العزيز :العمران في مصر ،رسالة ماجستير سابقة ،ص٧٥

١٧- فتحى الشاعر ، ص ص ٤٠-٤١ .

١٨- نفسه ، ص ٤٣.

١٩- السيد محمد عاشور : **بلبيس بلد الأنبياء والرسل** ، دراسة تاريخية تأصيلية ، مكتبة الغد ١٩٨٩ ، ص٣١.

٢٠- محمد رمزى ، **القاموس الجغرافى** ، جـ١ ،القسم الثانى ،ص١٠٠.

٢١- المرجع السابق ، ص ٣٥٦ .

٢٢- فتحى الشاعر ، **مرجع سابق** ، ص ١٣ ، وللمزيد انظر أبو الفدا : تقويم البلدان ص١٠٨ .

٢٣- محمد رمزى ، **مرجع سابق** ، ص ١٥٥.

٢٤- قاسم عبده قاسم ، **عصر سلاطين المماليك ،التاريخ السياسى والاجتماعى**، عين للدراسات ، الطبعة الأولى ،١٩٩٨ ، ص ١٥.

٢٥- عمرو عبد العزيز منير : رسالة ماجستير مرجع سابق صـ٨٦ .

٢٦- محمد فتحى الشاعر، **مرجع سابق** ،ص ٤٧.وانظر:ابن إياس : بدائع الزهور ،ج٥،مصدر سابق،ص١٢٧،وانظر: عبد العزيز الشناوي :الدولة العثمانية دولة إسلامية ،ج١،مكتبة الأنجلو،القاهرة١٩٨٠،ص١٢٩.وانظر:**كمال مغيث**::مصر في العصر العثماني،الطبعة الأولى،مركزالدراسات القانونية ،القاهرة ١٩٩٧،ص ٧١

٢٧- **المرجع السابق** ، ص ٤٨.

٢٨- قاسم عبده قاسم ، **عصر سلاطين المماليك** ، **دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى** ، دار المعارف ، الطبعة الثانية،١٩٨٣، ص ص ١٢،١١.

٢٩- فتحى الشاعر ، **مرجع سابق** ، ص ص ٥٠ ، ٥١.

٣٠- محمد رمزى ، **القاموس الجغرافى** ، المرجع السابق ، ص ٨١ .

٣١- قاسم عبده قاسم ، **دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى** ، عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، ط١٩٨٣، ص ١٣وانظر :ابن إياس : بدائع الزهور ج١،ص١٥،ج٢،ص٢١٧

٣٢- نفس المرجع السابق ، ص ١١٢.وانظر :المقريزي :**الخطط**،ج١،ص٣٨٦.

٣٣- فتحى الشاعر ، **المرجع السابق** ، ص ٥٣.

٣٤- نفسه ، ص ٥٤.

٣٥- ذات المرجع ، ص٥٧.

٣٦- سعيد عبد الفتاح عاشور ، **المجتمع فى عصر سلاطين المماليك** ، القاهرة،١٩٦٢م. ص ٥٦.

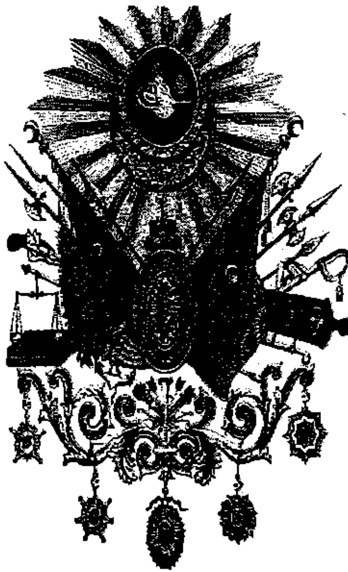
٣٧- عباس مصطفى عمار ، **المدخل الشرقى لمصر** ، القاهرة،١٩٤٦م، ص ص ٤٣، ٤٤.

٣٨- فتحى الشاعر ، **مرجع سابق** ، ص ٥٥.

القسم الثالث

الشرقيـــة والعهد العثمانـــى

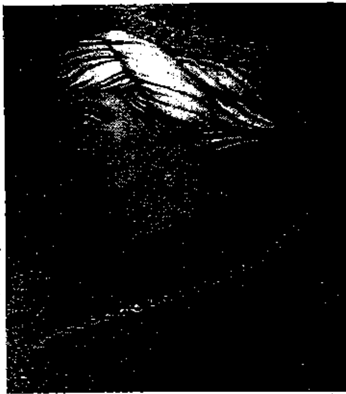
وصل التدهور الداخلى فى مصر إلـــى مـــداه ولـــم يكن ممكنا أن تـــصمد الدولـــة المملوكيـــة المنهـــارة مـــن الداخل فى وجه الأخطار القادمـــة مـــن الخـــارج . وقـــد بدات الدولة العثمانيـــة كمقاطعة رعويـــة فـــى الأناضول (فى نهايـــة القـــــرن الثالـــــث عشرالميلادي /الـــسابع الهجري)، ومـــا لبثـــت أن أخذت فى الظهـــور على مسرح الأحـــداث فى منطقـــة المـــشرق العربي منـــذ النـــصف الأول مـــــن القـــــرن الرابع عشر المـــيلادي ، وبدأ نمو الطمع العثمانى نحـــو الـــشرق العربـــى فـــى بداية القرن السادس عشر المـــيلادى ، وبـــذل طومانبـــاى خلال سلطنته القـــصيرة التـــى اســـتمرت ثلاثـــة شـــهور جهودا مضنية للـــدفاع عـــن مـــصر- التـــي كانـــت دارًا



شعار العثمانيين، الشعار يعود إلى عهد عبد الحميد الأول. توجد سلاح كثيرة عن هذا الشعار في متحف توب كابي باسطنبول

للخلافة الإسلامية منذ أن أحياها السلطان الظاهر بيبرس سنة(٦٥٩هـ/١٢٦١م)وظلت بالقاهرة حتى دخول العثمانيين القاهرة سنة(٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م).

وحين اهتز جسد طومانباى فى مشنقة على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التى تحملت عبء التصدى للمغول والصليبيين ومهمة إحياء الخلافة الإسلامية [١]. وبهذا وقعت مصر فى قبضة العثانيين بعد هزيمة المماليك فى معركتى مرج دابق (١٥١٦م) والريدانية (١٥١٧م) .



سليم الأول الرهيب 1512 1520 م

وبدأ الغزو التركى لمصر ، واتخذ الجيش العثماني طريقه بقيادة السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠م) . ودخل سليم الحدود المصرية ووصل إلى بئر العبد ، ثم إلى قرية قطيا ، وفى يوم الجمعة ٢٣ ذى الحجة (١٦ينايـر٩ وصل إلى الصالحية ، وفى اليوم التالى وصل إلى قرية الخطارة ثم إلى بلبيس فى

يوم (الأحد ٢٥ ذى الحجة).مكث السلطان العثماني فترة وجيزة فى بلبيس ، قدم له خلالهما بدو بنى بقر المسيطرون على الشرقية الطاعة ، وفي هذا السياق يذكر د. أحمد فؤاد متولى : " أن ولاء بدو الشرقية كان عاملاً هاماً فى نجاح العثمانيين لدخول مصر والسيطرة عليها ، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم اشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم وتهديدهم للقوافل المحملة بالمؤن للجيش العثمانى . وفى (يوم الخميس ٢٩ ذى الحجة الموافق٢٢ يناير ١٥١٧ م) تلاقى الجيشان المملوكى والعثمانى فى الريدانية أمام قبر السلطان قايتباى قرب العباسية[٢]. لتنتهى أيام الحكم المملوكى ويبدأ الحكم العثمانى لمصر الذى تسلم شهادة اعتماده من إقليم الشرقية .



وجدير بالذكر أن السلطان سليم الأول قبل وصوله إلي بلبيس أصدر منشوراً أن مدينة بلبيس ستكون فى أمان وسلام ولن يصيبها أذى ولكن السلطان طومانباى كان قد تحقق

من أن العثمانيين علي وشك دخول بلبيس أمر بحرق كل ما فيها من مؤن حتى لا يستفيد منها الجيش العثماني ، وهكذا وقع ضرر الفتح العثماني كله على كاهل الشرقية وأهلها وبخاصة بلبيس(٣).

وبعد الفتح العثماني " عقد العثمانيون مع القبائل العربية بالشرقية اتفاقيات أقروا فيها سيادة شيوخ تلك القبائل على المناطق التى كانت لهم السيادة فيها من قبل في العصر المملوكي ،وتعهد الشيوخ بحفظ الأمن وتنمية الزراعة وجمع الضرائب من أراضيها ، غير أن تلك الاتفاقات لم يكن من الممكن احترامها لوقت طويل وبدأت سيطرة القبائل العربية على الأقاليم الزراعية المتاخمة لمضاربهم مثل بنو بقر فى الشرقية (٤).

وهدد العربان مدينة القاهرة نفسها وطرق التجارة مثلما هاجم عربان الصوالحة بالشرقية طريق القوافل على السويس(٥) ، ولم يهدأ اهالى الشرقية تجاه الحكم العثماني نتيجة العسف والظلم الواقع عليهم ، ولعل ذلك أدى لقيام سلسلة من الثورات كانت نتيجة لسلسلة طويلة من الثورات والانتفاضات على الظلم والاستغلال المملوكي والتركي ، كما عبرت عن وعى قومى ناجح وعن وعى سياسى هام ،

وتمثل ذلك في ثورة أهل الشرقية بجانب سكان القاهرة ضد الحكام، ويصفها بعض المؤرخين بأنها أول ثورة تطالب بالدستور في التاريخ المصري ، ففي (سنة ١٢١٠هـ - ١٧٩٥م) جاء للقاهرة عدد كبير من فلاحي الشرقية يشكون ظلم أتباع محمد بك الألفي وطلبهم من الفلاحين ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ عبد الله الشرقاوي(*) ، ويسهب الجبرتي في الحديث عن أحداث تلك الثورة وتداعياتها-(عبد الرحمن الجبرتي- عجائب الآثارجـ٤ ، ص ٢٥٤)- وجمع عبد الله الشرقاوي الشيوخ والعلماء وأغلقوا أبواب الجامع وأرسلوا إلى مراد بك وإبراهيم بك فلم يهتما وفي اليوم الثالث للثورة حضر الباشا في منزل إبراهيم بك ، وكذلك الشيخ السادات والشيخ عبد الله الشرقاوي والبكري

(*) هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم ، الشافعي المذهب ، ولد كما يقول الجبرتي " في حدود سنة ١١٥٠هـ في قرية " الطويلة " من إقليم الشرقية (تبع مركز فاقوس الآن) ولهذا لقب بالشرقاوي، حفظ القرآن في قرية " القرين " ثم قدم للأزهر لتلقي العلوم ، وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ العروسي سنة ١٢٠٨ هـ، وكان عمره سبعا وخمسين سنة ، وكانت حادثة عام الحجة تنطق بما كان للشيخ من نفوذ ومكانة وحب للبلاد في عهد المماليك واشترك في تولية محمد علي باشا عرش مصر في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ(٧).

والشيخ الأمير ، وانتهى النقاش إلى إبطال المظالم المحدثة والمكوس وكان القاضى حاضرا فكتب حُجة عليهم وقر عليها الباشا وختمها إبراهيم بك ومراد بك وهدأت الثورة وسمى هذا العام **(بعام الحُجة)**[٦]

وكذلك شهدت الشرقية نهاية الحركة الاستقلالية لعلى بك الكبيرعن الدولة العثمانية ، على يد خادمه وخائنه محمد بك أبو الدهب عام ١٧٧٣م ؛ حيث اتفق محمد بك أبو الدهب مع الدولة العثمانية على ان يعود إلى القاهرة ويتخلص من مخدومه على بك الكبير الذى فر إلى سوريا وأصبح محمد بك أبو الدهب شيخا للبلد عام ١٧٧٢م ، وعندما تمكن على بك من تكوين



جيش جديد وحين وصل إلى الصالحية فى (٢٨ أبريل سنة ١٧٧٣م) حرك محمد بك قواته من العادلية نحو الصالحية وبدأت المعركة وانتهت بهزيمة على بك ، وفى الثامن من (مايو عام ١٧٧٣م) مات على بك الكبير متأثراً بجراحة ، وخلصت مصر بكاملها

لمحمد بك أبو الدهب بعد انتصاره بمعركة الصالحية[٨].

ولم يمر قرن من الزمان على الفتح العثمانى حتى أدى تصاعد نفوذ أمراء المماليك على سلب الوالى العثمانى ، أى سلطة حقيقية وتثبت العديد من الحوليات التاريخية ما أصبح للمماليك من نفوذ على الوالى العثمانى[٩].ففى أحداث سنة ١١٣٤ ه

(١٧٢٢م) يذكر أحد المؤرخين كيف تمكن المماليك من إجبار الوالي العثمانى على الموافقة على محاربة عربان الشرقية فيقول : " ثم إن إسماعيل بك عمل جمعية فى بيت عبد الرحمن آغاوأجمعوا على إنهم يرسلون تجريدة إلى سالم بن حبيب " ، والعرض على الباشا وطلبوا على موجبه فرمانا فأبى ثم إنهم أخذوا الفرمان منه بالقهر عليه وعينوا على بك وعبد الرحمن أغا باش التجريدة "[١٠].

وهكذا كان الحال فى عهد مراد بك وإبراهيم بك [١١] ، حيث وصلت البلاد إلى حالة سيئة اقتصاديا وسياسيا ترتب علي ذلك اهتزاز ثقة الناس في رموز الحكم وخلق حالة من الخوف لدي الناس من التعامل معهم ولا تتواني قريحتهم في تغذية هذا الشعور

بمجموعة من الأمثال مثل : (فــرمن العــسكري فــرارك من الأجرب) ،(جبناك يا سلطة تحمينــا حميتــي النــار وكويتينا)،(لو كان دراعــك عــسكري اقطعــه)،(يــارب يامتولي مضيبة تاخد العثمانلي) ليدل ذلــك علــي وجــود شحنات مكتومة من الغــضب لــدي عامــة النــاس ضــد رموز الحكــم وسياســة النهــب والقمــع التــي اتقنوهــا ليساهم ذلك فــي تعميــق الــروح الثأريــة بــين النــاس والسلطة الحاكمة وتجلى ذلك فى الــشرقية حــين حــدثت حوادث نهب قام بها الأصبهانية وهم فرقــة مــن عــساكر الأتراك ونهبوا بلبيس والــصالحية فثــار الفلاحــون ممــا اضطر الأمراء لإحضار الجنود وتــوبيخهم علــي ذلــك ، هذا وقد بلغ عدد سكان بلبــيس- حاضــرة الــشرقية فــى ذلك العصر – ما يقــرب مــن ٣٠٠٠ نــسمة[١٢].ورغــم ذلك العسف والجــور إلا أن الــشرقية لــم تفقــد قــدرتها علي العطاء والمهارة في الــصناعة والتجــارة فيتحــدث المؤرخ محمــد أحمــد بــن إيــاس : " وأن المنــسوجات الحريرية انتشرت فــى المنــاطق الــشمالية مــن الوجــه البحرى نظراً لــسهولة اســتيراد الحريــر مــن ســوريا ولملائمة تلك المناطق للتــصدير إلــى أســواق الأقطــار المجاورة ، وقد اصبح لبعض البلاد شــهرة واســعة فــى هذه الصناعة مثل : إنشاص [١٣].

ولسوف نجد أنه رغم عسف الحكم المملوكى التركى إلا أن الشرقية كانت من الأقاليم الأولى التى جادت بكل تضحية واحتملت صنوف العنت وضروب الأذى الذي احتملته سواء من المماليك أو الأتراك ونجدها وسط ذلك كله تشارك بجدية لتتخلص من الاحتلال الفرنسى (١٧٩٨ - ١٨٠١م) الذي جثم علي أنفاس مصر في تلك الفترة لأن مصر لم تكن بلد المماليك أو الأتراك ولكنها بلد كل أبناء مصر.

أسانيد القسم الثالث

١- قاسم عبده قاسم : **عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسى والاجتماعى** ، مرجع سابق ، ص١٥٥.

٢- احمد فؤاد متولى ، **الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته** ، مرجع سابق،ص١٨٣.

٣- السيد محمد عاشور ، **مرجع سابق** ، ص١١١ .

٤- كمال حامد مغيث ، **مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧ -١٧٩٨م)**، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان ، (ط الأولى، القاهرة،١٩٩٧) ، ص٨٠.

٥- **المرجع السابق** ، ص ٨٢.

٦- نفسه ، ص ١٨٣ (وللمزيد انظر : محمد البهى ، حسن إبراهيم حسن ، محمد جمال الدين سرور ، الأزهر تاريخه وتطوره ، القسم الأول، مطابع الشعب ،١٩٦٤ ، ص ص٥٧ ، ٥٨).

٧- حسن إبراهيم حسن ، محمد جمال الدين سرور ، **الأزهر تاريخه ونفوذه** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٧.

٨- دانيال كريسيليوس ، **جذور مصر الحديثة** ، ترجمة عبد الوهاب بكر (نهضة الشرق، القاهرة ، ١٩٨٥) ، ص ص ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩.

٩- كمال حامد مغيث ، **مصر فى العصر العثمانى** ، مرجع سابق ، ص ١٠٢.

١٠- المرجع السابق ، ص ٦٦ .

١١- السيد محمد عاشور ، **مرجع سابق** ، ص ١١١.

١٢- عبد الرحمن الرافعى ، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم** ، الأعمال الفكرية ، مكتبة الاسرة ، ١٩٩٨ ، ص ٦٤.

١٣- كمال حامد مغيث ، **مرجع سابق** ، ص ٣٤.

الفصل الثاني

نابليون في الشرقية

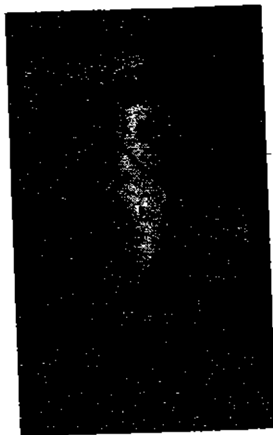
" سأستعمر مصر .. سأستعمر مصر ، وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين . إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيرًا طيبًا "

"من مذكرات نابليون التي كتبها عن الحملة وهو معتقل في جزيرة سانت هيلانة"

" في كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأسا أكثرهم لزعماء الثورة ، وفى إعتقادى أن هذا درسا نافعا "

(من مراسلات نابليون إلى رينيه) [١].

خضعت الشرقية كما خضعت مصر بأسرها لحكم فرنسا مدة قصيرة لا تزيد على ثلاث سنين وشهرين . وعلى الرغم من قصر هذه الفترة كانت ذات شأن عظيم في تاريخنا القومي لأن هذا الاحتلال تمثل فيه أول دور من أدوار حركتنا القومية وأشعل أول شرارة من المقاومة الوطنية ، وإن المتصفح لمؤلفات هذا الدور من أدوار مصر ليجد أن الشرقية كانت في طليعة الأقاليم التي جادت بكل تضحية واحتملت صنوف العنت وضروب الأذى لتتخلص من الاحتلال الغاشم الأجنبى .



كما أن الشرقية كانت تضم إذ ذاك بين أحضانها زعماء القوم الذين فروا من العاصمة بعد هزيمة إنبابة فلجأ إليها إبراهيم بك ومعه نحو ألف وخمسمائة

من المماليك وصحبهم والى مصر العثماني وهو بكر باشا ونقيب الأشراف وزعيم الشعب السيد عمر مكرم . وحمل أولئك الفارون ما أمكنهم حمله من أموال وتحف وذخائر وعسكروا في مدينة بلبيس فتطلعت إليهم أنظار المصريين وأصبحت الشرقية أحد مراكز المقاومة ضد الفرنسيين لما فيها من مقاومة لم تصل إليها مدافع الفرنسيين [٢] أضف إلى ذلك أن الشرقية كانت في ذلك الوقت تفخر أن أحد أبنائها وهو(الشيخ عبد الله الشرقاوي) كان متوليا منصب مشيخة الأزهر – تولاه بعد الشيخ العروسى سنة (١٢٠٨هـ إلى ١٢٢٧هـ) (١٧٩٣ – ١٨١٢) [٣] – فتقرب إليه الفرنسيون واستمالوه بشتى الطرق لاعتقادهم أن كلمته هي العليا



وأن لها قيمة في تصريف الأمور ، فآلت إليه رياسة الديوان الوطني وكان يشارك نابليون في إدارة شئون البلاد المختلفة وفى الوقت ذاته نجد كثيراً من أبناء الشرقية قد رفعوا راية العصيان مع إبراهيم بك وبكر باشا فالتفوا حولهما وأخلصوا للسلطان العثماني أمير المؤمنين [٤] . ورمز إقامة شرع الله في أرضه .

وكثيرًا ما حمل أعراب الشرقية منشورات أولئك الزعماء التي كانت تفيض ثورة وتثير حماسة المصريين ضد الغاصبين ، يد لنا على ذلك ما قاله الشيخ الجبرتي في كتابه " عجائب الآثار " في حوادث سنة ١٢١٣هـ (سبتمبر سنة ١٧٩٨م) " إنهم نبهوا على الأغراب من أعراب الشرقية

وغيرهم والخدامين والبطالين ليسافروا إلى بلادهم " ويقول في موضع آخر من نفس حوادث السنة " أنهم قتلوا شخصين من الشرقية وطافوا برأسيهما ينادون ويقولون : " هذا جزاء من يأتي بمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب " (٥).

وعلى العموم فحركة العصيان ضد نابليون ولدت في صحراء الشرقية ثم أخذت في النمو والتطور شأن الكائن الحي وتعاقبت عليها الأدوار المختلفة فحينا كانت تقوى وآونة تضعف وطورا تشتد وتنشط وتارة وتخمد وتفتر على أنها طوال هذه السنين الثلاث كانت تسير قدما مجددة قواها منتفعة من التجارب طامحة في حركتها إلى المثل الأعلى .

وبعد موقعة أنبابة (إمبابة) قدم نابليون إلى القاهرة فاستقامت له الأمور فيها وبدأ يفكر في تتبع المماليك في الشرقية وفى الصعيد ، فاكتفى بأن أرسل (ديزيه)خلف(مراد بك) ليقضى على أتباعه في الوجه القبلي أما إبراهيم بك فإنه كان موضع تفكير نابليون ومصدر الانزعاج للحملة إذ كانت قوته(سليمة وكاملة إلي حد كبير) كما كان على اتصال بسوريا والإنجليز في البحر الأبيض المتوسط ، من أجل ذلك وجه نابليون معظم قواته لسحق إبراهيم بك في شرق الدلتا حيث كان مرابطا في بلبيس (٦) . أضف إلى ذلك وصول قوافل الحجاج من الحجاز مما أدى إلى تخويف نابليون من تفاقم الخطر لأنه علم بأن معظم الحجاج رغبوا في الانضمام إلى أميرهم إبراهيم بك كما خشي أنه ربما يتهم بعدم تأمينة لطرق الحج فلم يجد نابليون بدا من الخروج للقضاء على هذه البذرة قبل أن تنمو وتتفرع كما أسرع إلى إعلان تأمين سبل الحج

وفى ذلك يقول الجبرتي : " في عشرين صفر سنة ١٢١٣هـ (٣ أغسطس سنة ١٧٩٨م) حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب (أعضاء) الديوان إلى باش العسكر وأعلموه بذلك وطلبوا منه أمانا لأمير الحج (صالح بك) فأمتنع ، وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتي في قلة ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال لهم أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر " (٧) .

ولكن بالرغم من هذا نجد أن أغلبية الحجاج بل أمير الحج نفسه (صالح بك) قد انضموا جميعا إلى جانب إبراهيم بك ولم يبق منهم إلا النذر اليسير فى بلبيس قبض عليهم نابليون وأرسلهم محروسين ببعض جنده إلى القاهرة وفـي ذلك يقول الجبرتي في حوادث ربيع الأول سنة ١٥١٣هـ " ملك الفرنسيون بلبيس من غير قتال ومن بقى فيها من الحجاج لم (يشوشوا) عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من العسكر " (٨) .

وقبل أن يجرد نابليون جيشا للقضاء على (إبراهيم بك) نراه يوزع القوات العسكرية على بقية مديريات الوجه البحري فكان حاكم الشرقية العسكري ضابطا اشتهر بين أقرانه بالشجاعة والقسوة الشديدة يدعى (لكلرك) الذي تلقى بعد يومين من تعيينه الأوامر بالمسير صوب حاضرة الشرقية وكانت آنذاك مدينة بلبيس (٩) .

بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف (يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨) من القاهرة بقيادة الجنرال (لكلرك) فكانت أحيانا تجد المقاومة الشعبية وأحيانا لا تجدها ولكن على العموم كان سير الجيش محفوفا بصعوبات كبيرة بدليل

وصول بعض قوات فرنسية للنجدة تحت قيادة الجنرال " دوجاى " و " رينييه " . وأخيرا كتب الجنرال

" لوجيه " إلى نابليون يقول : " ثارت القرى في الشرقية ضد فرساننا الذين أرسلناهم إليها لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات وكل الدلائل تدل على أنه لابد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات " (١٠).

لم يجد نابليون بعد ذلك بدا من الخروج بنفسه إلى الشرقية (وهو الإقليم الوحيد الذي سار إليه بنفسه) لملاقاة إبراهيم بك ومماليكه فوصل بلبيس في صبيحة (يوم ٩ أغسطس سنة ١٧٩٨م) بعد أن أخلاها إبراهيم بك فاعتزم نابليون أن يتعقبة قبل أن يغادر حدود مصر إلى الشام ولقي الفرنسيون في بلبيس من بقى من الحجاج كما ذكرت . والحقيقة أن نابليون لم يلبث في بلبيس طويلا لرغبته في تعقب إبراهيم بك فأرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس وصلت إلى قرية(القرين) دون أن يلحق بقوة (إبراهيم بك) الذي غادرها إلى الصالحية فتقدم نابليون إلى هذه الجهة حيث اشتبك مع قوة المماليك في معركة عرفت بمعركة الصالحية



(١١ أغسطس سنة ١٧٩٨) وقد حمى وطيس القتال في هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على الفرنسيين كما كانت هذه أول معركة وقعت بين فرسان

الجيش واقتتلوا بالسلاح الأبيض فتحرج مركز الفرنسيين لبسالة المماليك ومهارتهم في الكر والفر ولانضمام بعض الأعراب إلى صفوفهم (١١) ولم ينقذ نابليون من ورطته سوى الجنرال لكلرك الذي أجبر المماليك على الانسحاب باستعماله المدافع ومما يدلنا على تفوق المماليك في هذه المعركة جرح بعض خاصة رجال نابليون كالجنرال(سلكوسكى وديترس) ياور نابليون (١٢). والحقيقة أن الصالحية كانت المكان الذي وصلت فيه أسوأ الأنباء وأشأمها على نابليون وضباطه فأكثروا من الندب والعويل، يدلنا على ذلك قول مينو في مذكراته عن الصالحية " كانت البلد السيئ الذي فقدنا فيه كل آمالنا وأمانينا وضحينا فيه بمجهوداتنا جمعاء إلى أن قال: " يا رب كيف تنتهي هذه الحملة في مصر ؟ وكيف نؤمل المساعدة وقد حيل بيننا وبين بلادنا ؟ أنعيش فى مصر بقية حياتنا بعيدين عن أولادنا وآبائنا وأزواجنا وخليلاتنا..؟ " .

وفى الصالحية أيضا أصدر نابليون أمره بتعين الجنرال (دوجاى) قومندانا لمديرية المنصورة والجنرال فيال دمياط وبعد أن جعل من الصالحية مركزا لتموين الجيش ، وبعد خروج إبراهيم بك ومن معه من أرض مصر وتوجههم إلى غزة لم يبق أمام نابليون إلا الإسراع في العودة إلى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر السيئ الذي أحدثته معركة أبى قير البحرية في نفوس المصريين وجنود الفرنسيين كما أنه أدرك تمام الإدراك أهمية موقع الصالحية من الناحية العسكرية فقبل خروجه منها أصدر أمره(للجنرال كافاريلى) بإنشاء القلاع والطوابي والثكنات اللازمة . كما عين الجنرال

(رينيية) قومندانا لحامية الصالحية ومديرا لمديرية الشرقية وأصدر أمرا له لإقامة الطوابي والتكنات بالصالحية و بلبيس. وأهتم بتحصين الصالحية لحراسة برزخ السويس ولمراقبة حدود مصر الشرقية ومعنى ذلك أن الشرقية اتخذت مركزا من أهم المراكز الحربية [١٣].

أما عن روح الناس في الشرقية فإنها كانت تتدفق ثورة وتفيض كمدا وغيظا وذلك لكثرة اعتداء الجنود وجرائمهم ،، إذ كان الفرنسيون كثيرا ما ينهبون القرى والماشية فيضطر القوم إلى الرحيل عن قراهم لتهريب مواشيهم في الصحراء كما امتنع الناس عن بيع ما يحتاج إليه الفرنسيون وحملوا السلاح ضد العدو وأخذوا يناوشون الحاميات الفرنسية ويقطعون طرق مواصلات الجيش مع القاهرة . ولقد اشتدت تلك الحركات العدائية عند بذر بذور الثورة التي اشتعلت نيرانها في القاهرة في (أكتوبر سنة ١٧٩٨ م) . فتشجع الشرقاويون على مهاجمة المخافر الفرنسية مما أدى إلى قتل بعض كبار الفرنسيين فمثلا قتل أهل بلبيس وكفور العابد ترجمان الجنرال (رينيية) الخاص على بعد أربعين مترا من معسكر الفرنسيين العام في المدينة كما قاوم أهل " ببشة " الفرنسيين عندما شرعوا في مصادرة خيولهم وذلك بالبنادق والعصي (الشماريخ) فعادت الكتيبة أدراجها [١٤]. ولعل تحمس الأهالي ضد الفرنسيين وشدة مقاومتهم يرجع إلى وصول الفيضان الذي عطل حركات الجنود وانتقالاتهم إلى القرى كما أن الأمراض كانت قد بدأت تظهر مع شدة الحرارة وبخاصة الرمد الذي فتك بالفرنسيين وانتشر بينهم كما أن الثورة الشعبية التي استطار شرارها من القاهرة إلى الأقاليم زادت من حماسة

الأهالي وشجعتهم على مهاجمة معسكرات العدو وبخاصة أهالي بلبيس ومعهم نحو مائة فارس من قبيلة العائد هجموا على كتيبة فرنسية في فجر ٢١ أكتوبر وقتلوا معظم جنودها ولكن رد (رينييه) هجمة العرب بعد أن انسحب إلى بلبيس كما طلب المدد من القاهرة خوفا من حرج مركزه .

وهكذا استمرت الحرب سجالا بين الشرقاويين وبين الفرنسيين بسبب عجز(رينييه) عن تجريد قوة كافية على الثوار تغزوهم في بلادهم وقراهم فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسي مهددة مما حمل نابليون على أن يرسل رسالة هامة إلى رينيه بتاريخ (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨م) يأمره فيها بتوقيع العقوبات القاسية على القبائل التي تمردت أو شاركت في الحركات الأخيرة ويأخذ منها الرهائن ويقتل مشايخ البلاد لأنهم المسئولون مما يحدث في بلادهم

ولما علم الأهالي بذلك أوغلوا في البلاد البعيدة وبعضهم أخلى القرى المجاورة وبهذا لم يستطيع رينيه تجريد حمله لتعقبهم وآثر أن يميل معهم إلى الملاطفة فلجأ إلى المفاوضة مع زعمائهم لإعادة السكينة ولكنه لم يوفق ولذلك استمرت الاضطرابات في الشرقية حتى قبيل خروج نابليون إلى سوريا فنراه في(شهر يناير سنة ١٨٩٩م) يمر على الشرقية بعد عودته من رحلته إلى السويس ويقسو على أهلها ويذيقهم المذلة والمهانة ، وفي ذلك يقول الجبرتي :- " وفي ليلة الاثنين غاية شهر رجب حضر ساري عسكر بونابرت من ناحية بلبيس إلى مصر ليلا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظة أخا سليمان أباظة(شيخ العبابدة) كرهائن وأخذ مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغار " (١٥).

ولسوف نلاحظ أن ما قدمه الجبرتي يدل على أسلوب الفرنسيين في الاعتداء على الناس وأخذهم ماشيتهم ودوابهم التي يعيشون منها وخصوصا الشرقية التي اعتبرها نابليون بمثابة مخزن المؤن ومستودع للماشية يأخذ منها كل ما يحتاجه وما تلزمه الضرورة كما أنها تأثرت بانتشار الوباء الذي عم الحملة الفرنسية في الشام (١٦) مما أدى إلى موت أبناء الشرقية متأثرين بهذه الأوبئة التي جلبتها الحملة معها من الشام .

وعلى الجانب الأخر ، نجد الشيخ الشرقاوي وقف أمام جبروت رائد الاستعمار الغربي " نابليون " متحديا إياه بكل شجاعة ، وذلك حين دعا نابليون أعضاء ديوان القاهرة إلى بيته وأراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان ، ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، تكريما له وتعظيما كما كان يدعى ، فما كان من الشيخ إلا أن رمى به الأرض غاضبا ، لأنه رأى في ذلك مسا لوطنيته وكرامته ثم استقال من الديوان، وضرب بذلك المثل الأعلى لأعضائه في الشمم والشجاعة ، وعبثا حاول الترجمان أن يقنع المشايخ بأن إلباسهم هذا الطيلسان إنما هو تكريم لهم ، فغضب نابليون على الشيخ وقال: " إنه لا يصلح للرياسة ".

هذا موقف للشرقاوي أمام نابليون وفى بيته ، لا يقفه إلا من أوتى حظاً عظيماً من الشجاعة والوطنية الصادقة ، ونحن نعلم من هو نابليون في ذلك العصر ، وما سطوته وما جبروته وخديعته للشعوب المغلوبة على أمرها وتقديمه شهداءه مزهوا على مذبح الإخاء والمساواة كما كان يزعم ، وبعد كل هذا نرى البعض منا ممن يعتقدون أن هوايتهم وقيمتهم لا تكون إلا عبر

الغرب أو العلاقة معه في تدافع غير مبرر نحو الآخر والأستقواء به وتجاهل غريب للخصوصيات والمحليات الثقافية بكل ما تحمله ومن دلالات هامة بعضها يتعلق بالذاكرة التاريخية وعن نقاط تحول في تاريخ الأمة . تلك الذاكرة التي تتعرض للوهن والتزييف تحت ضغوط مخططات العولمة وخطابها عن الثقافة العالمية والتاريخ العالمي للإنسانية وتزييف الوعي وعن حوار الحضارات وما شابه !!



أسانيد الفصل الثاني

(١) محمد عبد العزيز ، **بين احتفالات ثلاث** ، حولية قضايا العالم الاسلامى (أمتي في العالم) (١٤١٨-١٤١٩هـ) ، (مركز الحضارة للدراسات السياسية ، القاهرة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) صـ٥٩ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم** (سلسلة الأعمال الفكرية مكتبة الأسرة ١٩٩٨م صـ٢١٤، صـ٢١٥،٢٤٩.

(٣) أحمد شلبي ، أحمد الحوفى ، **الأزهر تاريخه وتطوره** مرجع سابق صـ٣٢٧.

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق صـ١٠٦ وما بعدها .

(٥) عبد الرحمن الجبرتي ، **المختار من تاريخ الجبرتي** (سلسلة روائع التراث) ، مكتبة الأسرة ١٩٩٥-١٩٩٦م صـ٢٥ وانظر (كرستوفر هيرولد) صـ٢٠١.

(٦) الرافعى ، مرجع سابق صـ٢٤٩ وما يعها .

(٧) نفسه صـ٢٥٠ .

(٨) المرجع السابق صـ٢٥٣.

(٩) المرجع نفسه صـ٢٥٠، عبد الرحمن الجبرتي ، **المختار من تاريخ الجبرتي** مصدر سابق صـ٢٨ .

(١٠) عبد الرحمن الرافعى ، **مرجع سابق** صـ٢٥٢ (انظر كرستوفر هيرولد ، **بونابرت في مصر**) صـ٣٦٨

(١١) المرجع السابق صـ٢٥٣ .

(١٢) نفسه صـ٢٥٣ .

(١٣) نفس المرجع ، صـ٢٥٥،٢٥٦،٢٥٧ .

(١٤) المرجع السابق صـ٢٥٧،٢٥٨ .

(١٥) الجبرتي ، **المختار من تاريخ الجبرتي** ، مصدر سابق صـ٣٠، أنظر : عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق صـ٢٥٧ .

(١٦) للمزيد أنظر : " **بونابرت في مصر**، تأليف ج. كرستوفر هيرولد ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة محمد أحمد أنيس ، دار الكتاب العربي بالقاهرة صـ٢٩٠ وأيضا :- " **الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر** " محمد فؤاد شكري دار الفكر العربي ، صـ١٢٧، وأنظر : " عبد الرحمن الرافعي المرجع السابق صـ٣٦٢ .

الفصل الثالث

في الشرقية شوارع وحواري !

" ....ألم أقل لك إن أولياء نعمتي اثنان : أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح . وأن قصدي من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود الآن ، أخذنا وعطاءنا ونيلنا هذا الشرف هو من وجودهم أي بيهم فعليه – ولكون الفلاح ولى نعم الجميع – يجب النظر لما فيه أصول رفاهيته "

محمد على " .[١]

كانت الحملة الفرنسية على مصر في نظر الجميع وقت انسحابها ، وبالنسبة لفرنسا بالأخص ، حملة فاشلة من كافة الوجوه ، قد وصفها البعض مثل تيير Thiers بأنها : " أكثر محاولة في التاريخ تهورا ، وأكثر تهورا من حملة بونابرت على موسكو " . و لا نكاد نجد في التاريخ مشروعا بدأ بمثل ما بدأت به هذه الحملة من الطنطنة والمبادئ الرفيعة والأهداف واسعة النطاق ، ثم إذ هو بعد بضعة أشهر يتدهور إلى حد أن يهجره صاحبه ، بونابرت لمصيره ، ولا يكاد خلفه كليبر يفكر إلا في كيفية تخليص رجاله من الورطة والرحيل [٢] .



ومن رحم النهاية التعسة للحملة الفرنسية على مصر ظهرت على مسرح التاريخ شخصيات قيادية عديدة واعية بدورها في التغيير من حال إلى حال

وفى مقدمتهم شيخ استرسلت لحيته وعظمت عمامته، تحفه المهابة ويعلوه الوقار هو الإمام وشيخ الإسلام والمسلمين عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر الشريف الذي ثبت على المبادئ التي شكلت وجدانه في مقاومته للظلم حيث كان .



ففي صباح يوم أسود لحاكم ظالم مثله مثل كثير من حكام مصر أراد الوالي التركي (خورشد باشا) فرض ضريبة جديدة على الشعب ليتمكن من دفع رواتب الجند (الدلاة) حتى يجلوا عن القاهرة إلى الجيزة كإخوانهم ، تهدئه للخواطر ، فأحدثت هذه الخطوة هياجا شديدا في الخواطر (١٢من صفر سنة١٢٢٠هـ) فاجتمع الزعماء في دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي) وفى مقدمتهم أمام الجامع الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي ، لاختصام الوالي . ولما علم الأهالي بذلك ثار منهم نحو أربعين ألفا منادين بالسخط على الأتراك ، ثم طلبوا من القاضي أن يرسل في استدعاء وكلاء الوالي فحضروا ، وانعقد مجلس الشرع وعرض الزعماء مظلمة الشعب وحرروا مطالبهم وأولها ألا تفرض ضريبة على المدينة بداية من اليوم إلا إذ أقرها العلماء وكبار الأعيان ،... ورأى الوالي أن هذه الخطوة خطيرة تكاد تقتلعه من منصبه . ولما وصلته رسالة القاضي أراد القبض على بعض العلماء ، وأرسل إليهم ، ففطنوا لمكيدته ولم يذهبوا ، ورفض الوالي إجابة المطالب متجاهلا الإرادة الشعبية وكان ذلك هو المسمار الأخير في نعش الوالي .

وتوالت الأحداث سريعا واجتمع وكلاء الشعب من العلماء وفي مقدمتهم الإمام عبد الله الشرقاوى في (١٣صفر سنة ١٢٢٠هـ) بدار المحكمة للتشاور في الموقف، واحتشدت الجماهير في فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة الشعب على عزل " خورشد باشا" وتوليه محمد على، وأبلغوه بما اتفقت عليه إرادة الشعب المصري ونهض الشيخان الجليلان السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي وألبساه خلعه الولاية [٣] ومن عجب الأقدار أن يقوم الشعب ممثلا في جيشه بعد ما يقرب من قرن ونصف باقتلاع أسرة محمد على وخلع حفيده - فاروق الأول – وخروجه في (٢٦يوليو عام ١٩٥٢ م) ، من مصر محفوفا



بمظاهر التكريم والكرم المصري المعهود حيث تفقد حرس الشرف وعزفت الموسيقى السلام الوطني ، وتم إنزال العلم الملكي من سارية القصر ،وتقدم الضابط الذي يحمل العلم فطواه وسلمه له كما تقضي التقاليد العسكرية ،وحلقت أربع طائرات نفاثة مشاركة في التحية، وأطلقت المدفعية ٢١ طلقة ، وأدى حرس الشرف التحية العسكرية . لفاروق لتتجلى حضارة مصر في وداعها لحاكم مخلوع بإرادة الشعب وجيشه المصري فهو ملك مطرود بعد انقلاب عسكري



يعامل باحترام ، ويودعه قائد الثورة في ذلك الوقت (محمد نجيب) ومعه بعض من أعضاء مجلس قيادة الثورة (حسين الشافعي وجمال سالم وإسماعيل فريد وأحمد شوقي)، ويخاطبه قائد الثورة بمولانا صاحب الجلالة ، وتؤدى له مراسم الوداع الملكية ويستقل اليخت الملكي " المحروسة" إلى منفاه ومعه أسرته دونما إهانة أو إذلال أو انتقام (٤). لتعبر مصر عن حضارتها الضاربة في أعماق التاريخ منذ آلاف السنين وقت أن كانت الشعوب التي ترفع الآن شعار حقوق الإنسان تعيش في خيام بأطراف الصحراء ، أو في الكهوف بجبال أوربا ومازالت يعودها الحنين إلى شريعة الغاب تمارسها بوحشية كلما سنحت لها الفرصة دون مراعاة لمبادئ الإنسانية وحقوق الإنسان التي تتشدق بها وهي تمارس وحشيتها ضمن شعوب مغلوبة على أمرها وكل هذا يحدث على مرأى ومسمع من العالم فشتان بين ما حدث في مصر لحاكمها المخلوع وبين ما حدث لملوك الشرق والغرب المخلوعين قديما وحديثا مثل الملك لويس وماري أنطوانيت على يد الثورة الفرنسية – ثورة الحرية والإخاء وحقوق الإنسان!!!! وما حدث لقيصر روسيا وأسرته، وفيصل ملك العراق ،وعبد الإله ،و شاوشيسكو رئيس رومانيا ،وصدام نمرود العراق ،وغيرهم الكثير عندما سقطت عنهم تيجان الملك والرئاسة .



فاروق الأول 1936-1952م

ونعود لحديثنا عن الشيخ الشرقاوي إمام الأزهر الشريف ، فنقول :إنه وقف مع العلماء ضد محاولات الباب العالي لخلع محمد على ، ووقف ضد محاولة هجوم المماليك على القاهرة في (أغسطس سنة ١٨٠٥م) ليستولوا عنوة على زمام الحكم ولم يمض شهران على توليه محمد على باشا وبعد هجوم المماليك على القاهرة ودخلوهم (المماليك) من باب الفتوح وقصدوا دار السيد عمر مكرم لاستمالة القوى الشعبية ولكنه رفض مقابلتهم ، فقصدوا دار (الشيخ عبد الله الشرقاوي) شيخ الجامع الأزهر فرفض الشرقاوي تقديم العون لهم باعتباره الرمز الديني والأسلامى في مصر وانتهت هجمة المماليك بالإخفاق(٥).

ووضع محمد على بعد تثبت أركان حكمه في مصر خطة طموحه لتحديث مصر،وجعلها تلحق بركب الحضارة والمدينة والتقدم،وتضمنت خطة محمد على وضع نظم جديدة ومتطورة للتعليم والزراعة والتجارة (٦) ولما غامر محمد على بحروبه في بلاد العرب ساهم عرب الشرقية وسيناء فى هذه الحملات إذ قدموا له الخيل ودربوا له الجند الأرناءوط على طريقة الكر والفر المعهودة فى الحروب عند الوهابيين (البدو) ويذكر طارق البشرى في كتابه : (المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية) (دار الشروق صـ٢١ ـ ١٩٨٨م) أنه : " وجد محمد على عرب البادية يعيشون على مشارف وادي النيل والصحارى في الشرقية



محمد علي باشا 1805-1848 م

(شـرق الـدلتا) وكـذلك فـي البحيـرة (غـرب الـدلتا) وفـى (عـام ١٨٢٧م) وجدت ست عشرة من هذه القبائل تضم أكثر من عشرة آلاف جندي من المشاة وسبعمائة وخمسين من الفرسان فاستمالهم محمد على وجذبهم لحياة الاستقرار وأقطعهـم الأرض فـي الأباعـد وعامـل شيوخهم بكـرم ولـين معاملـة لإفـراغ غضبهم وإرضاء كبريائهم الأشم وشكل منهم فرقا في جيشه بأجر مرض وبلغ عددهم في جيشه نحـو الخمسة آلاف يقومـون بمهـام الاستطلاع أثنـاء زحـف الجيوش ومناوشة الأعداء ويقومون في السلم بمهام الحراسة وتأديب البدو المتمردة .

واسـتعان محمـد علـى بعـرب الـشرقية فـي حـروب الـسودان والـشام والحجـاز واقتـرح محمـد علـى علـيهم أن يـدفع لهـم الأجور إزاء خدمتهم علـى شـرط أن يـأتي كـل منهم بفرسـه وبندقيتـه وكانـت كـل قبيلـة ترسـل عـددا مـن رجالها الأشداء تحت إمرة رئيس منها يطلق عليه " الـصارى " كـان بمثابـة قائـد لهـم وكـان محمـد على باشا يجزل لهم العطاء لما كان يلمس فيهم من شجاعة وإخلاص وتضحية وقد منحهم أراضـى شاسعة معفاة من الضرائب و قدرا من المحاصيل الزراعية وطلب من عرب المشارق حراسة حدود مصر (٧) .



واهتم محمد على بإدخال نظـام المدارس الابتدائية فـي الشرقية وغيرها من الأقاليم وأقام في الشرقية مدرسة الزقازيق ومدرسة العزيزيـة بمنيا القمح ، ومدرسة بلبيس ، ومدرسة كفور نجم، ومدرسة ميت العز (٨) . كما أرسل

بعض أبناء الشرقية إلى أوربا في خضم البعثات العلمية للغرب الأوربي لنقل النهضة الأوربية لمصر منهم أحمد بك السبكى ابن أحمد ابن سليمان عجيلة من عائلة تسمى العجايلة من بيت عجيل بالشرقية وهو من أعضاء البعثة الخامسة وكذلك مصطفى بك السبكى من أعضاء البعثة الرابعة وكان من مشاهير أطباء العيون ومدرس الرمد بمدرسة الطب [٩] وتوفى عام ١٨٤٤م.

وشرع محمد على في شق ترع عديدة بالشرقية مثل ترعة الوادي والمسلمية ، وبحر مشتول ، وبحر الرمل وترعة بردين، ومصرف بلبيس [١٢] كما شارك الشرقاويون في حفر ترعة المحمودية [١٣].

وفى عهده نشأت مدينة الزقازيق (عاصمة الشرقية الآن) على أثر بناء القناطر المعروفة الآن بالقناطر التسع ،، ومهمتها توزيع مياه بحر مويس لري أراضي الشرقية ، وأقام قناطر المسلمية وبحر مشتول ، والصفراء ، والعلاقمة ، و فاقوس بالشرقية .

وحفر بالشرقية الآبار وغرس بها العديد من شجر التوت لتربية دودة الحرير ، وأنزل بها بعض الأسر النابهة فى الزراعة بالصوة ومنهم الشيخ أيوب جد الأسرة الأيوبية التي تقطن بلدة (الصوة) الآن فاستقدمه محمد على إلى (الصوة) وأقطعه أرضاً واسعة ونصح له بزراعة الحناء والاتجار فيها علي أن يؤدي للوالي نصيبه من الخراج مقابل الأرض الممنوحة ، فاهتم بالزراعة اهتماماً كبيرا كان سببا في نجاحها ورواج تجارتها ، فراع هذا الأمر الجليل الوالي (محمد علي)

فعمد إلي التوسع في الزراعة والإكثار منها واستحضر أحجار الجرانيت من أسوان لإنشاء المطاحن اللازمة . ولقد كان من أطرف وأظرف مجاملات التاريخ (التي لا يزال تتردد إلي الآن في قرية الصوة) أن ينتهز (علي بك أيوب) الفرصة فيهدي حفيد محمد علي (فاروق الأول) في حفلة زواجه حناء من زراعة جده الأكبر ومطاحنه بعد مائة وعشرين عاماً . لتصبح (الصوة) بفضل مجهود الأهالي ودرايتهم بشئون الزراعة المختلفة عاصمة للحناء في مصر [١٤].

أما الزقازيق فهي من المدن الكبيرة فى مصر الواقعة على (بحر مويس) وهو البحر الذي أطلق عليه الناس في الشرقية اسم (بحر مويس) نسبة إلى النبي موسى "عليه السلام" والذي يعتقد الناس أنه هو البحر الذي سار فيه الصندوق بموسى "علية السلام" حين وضعته أمه وهو رضيع فألتقطه فرعون موسى وزوجته ليربياه في قصرهما.



ويعتبر(بحر مويس) العمود الفقري لري أراضي الشرقية (ويبدأ من الرياح التوفيقي عند قرية جمجرة شمال بنها بسبعة كيلو مترات [١٥] حيث يمد فرع مويس عددا من الترع التي ردم بعضها الآن والتي تتشعب كالشرايين في الأراضي التي ترويها . حيث تقع أول قناطر حجز عليه في الزقازيق وهى المعروفة بمجموعة التسعة (أمام سجن ومستشفى الزقازيق الأميري) فتستمد الماء من أمامها الترع الآتية وهى : ترعة الوادي الغربي والمسلمية وبحر بهنباى وبحر مشتول [١٦] وترعة القنايات والتي كان يطلق عليها الناس أحيانا

اسم (ترعة العوجة) وكانت تلك الترع تتفرع في اتجاهات مختلفة فكانت تري كأصابع اليد في شكلها _ وقد تم ردم بعض تلك الترع الآن _ ثم يستأنف بحر مويس سيره متجهاً نحو الشمال الشرقي ويمد بعض الفروع والترع حتى يصل إلى قناطر الصفراء عند الكيلو ٥٦،٦٥٠ وهى قنطرة الحجز الثانية التي تتفرع من أمامها ترعة الصادي وحمودة و الخضارية والأولي منها تروي مساحة كبيرة من الأراضي.

ثم يستأنف بحر مويس سيره متجها نحو الشمال لينتهي عند كفر صقر فتقع عليه قنطرة الحجز الثالثة . وأما الرابعة وهي الأخيرة فتقع عند قرية (تل راك) وعندها يتلاشى بحر مويس في الأراضي المجاورة لها بعد أن يقطع مسافة يبلغ طولها ٦٨ كيلو مترا تقريبا قد ملأها خصبا ونماءَ. ولقد كان ، ولا يزال له الأثر العميق في حياة أهل الشرقية منذ عهد المصريين القدماء إلي الآن .



جدير بالذكر أنه يرجع السبب فى وجود مدينة الزقازيق لرغبة محمد على في إنشاء الترع وتعميم طرق الري والصرف لأراضى الشرقية وذلك لإصلاح أراضيها الزراعية وتوسيع دائرة العمران فيها لزيادة إيرادات الحكومة من ضرائب الأطيان من جهة ولزيادة ثروة السكان ورفاهيتهم من جهة أخرى

وأصبحت الزقازيق فيما بعد مدينة كبيرة وكان بها أربعة مساجد ، مسجد العيد روس (أمام مدرسة الزقازيق الثانوية بنات حاليا) ومسجد

الشربينى (في نهاية شارع الحمام حالياً) بناهما تاجران من أهل المدينة ، ومسجد الميرى والمسجد الصغير الذي بناه الأمير يوسف بك (بمنطقة قسم يوسف بك بالزقازيق حاليا) وكان بها ثلاث كنائس إحداها للأقباط والأخريان للشوام والروم الكاثوليك – الأخيرة تقع في منطقة الصاغة حالياً وتم نقل ملكيتها حديثا للكنيسة الأرثوزكسية - " وتبع ذلك وجود مركز لبيع الكتب والخدمات للكنيسة الإنجيلية في خريف ١٨٨٤ م وكانت الكنيسة الإنجيلية آنذاك تشغل مكانا بمدرسة الأمريكان - وكان في الزقازيق كذلك عدة أسواق ودكاكين وخانات مشحونة بأنواع البضائع ومنازل تسمى " وكائل " لسكنى الأغراب وإكرامهم وبها " بنوكات للتجارة" وجملة آلات بخارية بعضها لحلج القطن وبعضها للطحن ولصناعة الثلج وغير ذلك " وقد أنشئ بها قصر للميرى ومسجد بأعمدة وسقوف بلدية ومنارة وأقيمت فيه الجمعة (وهو المسجد الكبير أمام سجن الزقازيق العمومي حاليا) ، ثم جدد بها الأمير يوسف بك مسجدا بالبر الغربي لبحر مويس يعرف بالمسجد الصغير وجدد بها مساجد وكنائس ومعاهد للعلم ،وتوسعت الزقازيق بعد ذلك ليقام فيها ديوان المديرية والمجلس المحلى وديوان الهندسة ومجلس للمشيخة ومجلس تنظيم ومدرسة لتعليم الشبان اللغات والحساب والهندسة ومحكمة شرعية كبرى مأذون لها بالحكم في عموم القضايا مثل البيوع والرهن والإسقاط .



والجدير بالذكر أنه في (سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م) ابتدأ العمل في إنشاء القناطر التسع تحت إشراف المرحوم أحمد أفندي البارودي باش مهندس ري مديرية الشرقية فى ذلك الوقت .وكان محمد على شديد الاهتمام بإنشاء الترع بالشرقية وقد كتب في (٢٢ ذي القعدة ١٢٥١هـ - ١٨٣٦م) إلى مدير الشرقية يقول : " إن ثلاثين يوما لحفر ترعة الوادي كثير بل يلزم السعي والاجتهاد في إتمامها في ظرف عشرة أيام وبدلا من أن يشتغل يوميا ١٨٢١ عاملا أجعلوهم ٥٤٦٠ عاملا ويجرى تشغيلهم يوميا بالأجرة " .

بعد ذلك رأى محمد على باشا أن تكون الزقازيق قاعدة الشرقية بدلا من بلبيس وذلك لتوسطها بين بلاد الإقليم فأصدر أمره (سنة ١٨٣٣ م) بنقل ديوان المديرية والمصالح الأميرية الأخرى من بلبيس إلى الزقازيق .



وفى (سنة ١٨٣٦م) تم بناء أول ديوان أقيم في الزقازيق لأعمال موظفي المديرية والمصالح الأميرية ثم أخذت المدينة في الأتساع والعمران بسبب وجود المصالح الحكومية الأميرية بها ، واتخاذ التجار وأرباب الحرف والصناعات الزقازيق مقرا لأعمالهم لاسيما بعد إنشاء السكك الحديدية وتفرعها من محطة الزقازيق إلى القاهرة والمنصورة والسويس وبورسعيد وفى عام ١٩٢٤م أنشأت بها دارا للكتب العامة .

وفى(سنة ١٨٩٠م) أصدر ناظر الداخلية قرارا بفصل مدينة الزقازيق عن مركز القنايات وجعلها من ملحقاتها وجعلها مأمورية قائمة بذاتها يرأسها مأمور لإدارة أعمالها ، ومعه موظفون غير موظفي المركز . وفى سنة ١٨٩٦م أصدر ناظر الداخلية قرارا بنقل ديوان المركز من بلدة القنايات إلى مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المركز وتوافر المساكن بها ووقوعها على رأس السكك الحديدية المتفرعة منها وسمى بمركز الزقازيق[٢٠] . جدير بالذكرأن الزقازيق من المدن الكبيرة فى مصر الواقعة على (ترعة) مويس والتى يسميها الناس فى الشرقية بـــ (بحر مويس).وقد شهد الوالى محمد على بكرم أهل الزقازيق واعجب به حين زار المدينة فى أعقاب بناء قناطر الزقازيق (سنة ١٢٤٨هــ/ ١٨٣٢م) و التى أصبح من الضرورى تسمية هذه القناطر باسم معين تعرف به بين رجال الرى وتذكر به فى مكاتباتهم فاختاروا لها اسم قناطر الزقازيق نسبة على نزلة الزقازيق المنسوبة إلى أفراد عائلة زقزوق وعلى كفر الزقازيق موطنهم الأصلى الواقع فى شمال مكان القناطر على بعد ٤٠٠ متر وقد أقام أفراد عائلة زقزوق مساكن لهم وللباعة بجوار مكان القناطر لإقامتهم عرفت بين العمال وغيرهم باسم نزلة الزقازيق ، ولما تم بناء القناطر (١٨٢٧م – ١٨٣٢م) زارها محمد على وأعدت له وليمة فاخرة وقدموا له الشيخ(ابراهيم زقزوق) كبير العمال فشكره على المجهود الذى بذله هو ورجاله وأفراد عائلته فى بناء القناطر ، ولما علم الوالى أنها سميت قناطر الزقازيق نسبة إلى أسرة الشيخ (إبراهيم زقزوق) قال محمد على :(فلتكن الزقازيق على بركة الله).

أما القول الشعبي بتسمية مدينة الزقازيق نسبة إلى نوع من السمك يعرف بالزقزوق وجمعه الزقازيق ، كان يخرجه الصيادون من قناطرها فيرجع إلى

الصدفة من وجود هذا النوع من السمك الذي كان ولا يزال يصاد بكثرة من خلف قناطر الزقازيق فظن الناس الذين يأخذون الألفاظ على ظواهرها أن الزقازيق عرفت بهذا الاسم نسبة إلى السمك المذكور ولكن هذا غير صحيح.


سعيد باشا 1854-1863 م

وفي الحقيقة كان وراء التطور السريع في اتساع مدينة الزقازيق العديد من العوامل كان أهمها ما أوقفنا عليه (فيض الله نوري) مدير الشرقية حين أرسل تقريراً إلى سعيد باشا (في ١٨ مايو ١٨٦٢م/٩ ذي القعدة ١٢٧٨هـ) جاء فيه : " إن بندر الزقازيق قد أصبح بلداً عامراً من إقامة كثير من التجار المسلمين والأوربيين فيه ومن إقامة العمال المشتغلين في حفر قناة السويس الذين يفدون من أقاليم الوجهين القبلي والبحري" ومنذ شهر يناير سنة ١٨٦٢م ازدادت أهمية مدينة الزقازيق إلى حد بعيد فقد تم حفر ترعة من الماء العذب من القصاصين إلى(نفيشة) ووجد بذلك شريان مائي متصل يربط الزقازيق بمساحات الحفر في منطقة قناة السويس وأصبح يمر سفراء الدول بالزقازيق في طريقهم إلى مساحات الحفر وبعد ذلك أخذت المدينة في الاتساع والعمران بسبب وجود المصالح الأميرية بها واتخاذ التجار وأرباب الحرف والصناعات بها مقراً لأعمالهم لاسيما بعد إنشاء السكك الحديدية وتفرعها من محطة الزقازيق إلى القاهرة والمنصورة والسويس وبورسعيد وغيرها لتشق الزقازيق طريقها لتحتل محوراً هاماً في ملتقى الطرق في مصر وسط كبريات المدن المصرية.

وتعد الزقازيق في ملتقى العديد من الطرق الحديدية .، فمن الخطوط التي أنشئت في عهد الوالي عباس الأول والوالي سعيد باشا خط أخر من بنها إلى الزقازيق (عام ١٨٦٠م) طوله ٣٧ كيلومتر [٢١] ومن الخطوط التي أنشأت في عهد الخديوي إسماعيل باشا ؛ خط من الزقازيق إلى الإسماعيلية (عام ١٨٦٨م) وطوله ٧٨ كيلو متر وخط من الزقازيق إلى بنها (عام ١٨٧٠م) وطوله ٣٧ كيلو متر وخط من قليوب إلى الزقازيق (عام ١٨٦٥م) طوله ٧٣ وخط من الزقازيق إلى المنصورة (عام ١٨٦٥م) وطوله ٧٠ كيلو متر وخط آخر من (أبو كبير) إلى الصالحية عام ١٨٦٩م [٢٢] وطوله ٣٤ كيلومترا وقد ورد اسم الزقازيق الحالي بخريطة رسم الحملة الفرنسية في (سنة ١٨٠٠م) وقد ورد محرفا باسم (كفر زجزى) وهو بذاته كفر الزقازيق لوقوعه في مكانه الحالي بقرب قناطر التسعة بالزقازيق [٢٣]

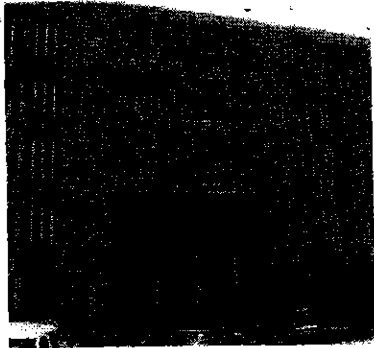
وفى (سنة ١٨٢٩م) ألف محمد على مجلس المشورة وهو نواة لنظام شورى برئاسة إبراهيم باشا نجل محمد على ودخل فيه أعضاء من مأموري الأقاليم ومنهم حسين أفندي مأمور الشرقية وكذلك دخل فيه مشايخ وأعيان الأقاليم منهم الشيخ أيوب عيسوي والشيخ عبد الغالب سالم والشيخ علي المعلم والشيخ على المكاوي والشيخ مصطفى على عن أبو كبير وعن(شيبة شرقية - منطقة جامعة الزقازيق حاليا وما بعدها -) الشيخ حسن أباظة والشيخ غيث والشيخ بغدادي أباظة وعن(ههيا)الشيخ أحمد دريبة وعن (قسم أول الشرقية) الشيخ إبراهيم سالم والشيخ محمد خضر والشيخ محمد عليوة

وعن(العزيزية بمركز منية القمح) : الشيخ موسى والشيخ محمد عبد الله والشيخ إبراهيم والشيخ أبو نصير [٢٤].

ويذكر التاريخ أنه قد نمى لمسامع محمد على في (شهر ربيع الأول ١٢٥٢هـ) أن (مدير نصف الشرقية) اعتدى على أولاد حسن أباظة " بيشة بالشرقية " من دون أن يعملوا ما يستوجب " الأذية" فكتب إليه يأمر بأن لا يتعرض لهم " لحين حضوره وأن يعاملهم بالحسنى [٢٥] . وكان الشيخ حسن أباظة رجلا مقداما ثريا وكان يملك أربعين ألف فدان وذلك في زمن محمد على وقد ذهب الكثير من ثروته العقارية في الكرم وأعمال الخير والتماس الجاه فترك لولديه السيد باشا أباظة وسليمان باشا أباظة أقل من نصف ما كان يملك .وجاء في الخطط التوفيقية ما نصه : " ومن أشهر عائلات العائذ وأعظمها رتبة وأرفعها مكانة أولاد أباظة ، تقلبت في الرتب السنية والمناصب الديوانية ، جملة منهم ، وسبقهم في ذلك الأمير الجليل ، ذو المجد الأثيل المرحوم حسن أباظة .... الخ توفى سنة ١٢٦٥ هجرية ". وورد في الجزء الرابع عشر من الخطط التوفيقية :"أن أهل العايد(أو العائد أو العايذ) في أول أمرهم نزلوا ببلاد قديمة مثل القصور والقسورية فاستولوا علي أرضها ومزارعها واستخدموا من بقى من أهلها بمالهم من البأس والقوة واستمروا كذلك زمنا مديدا ، وكان كبيرهم شيخ العرب إبراهيم العايدي متكلما عن قبيلة العايد في زمن الفرنسيين ، وجاء محمد علي وهم في خشونة العرب ولهم مناوشات كبيرة وليس عليهم شئ مما علي الفلاحين ، وكانوا قد خولهم الله عقارا وأموالا ونخيلا فخيرهم محمد علي بين معافاتهم في أن يعاملوا

معاملة العرب بشرط أن ينزع ما تحت أيديهم من أرض ونخيل وبين أن يعاملوا معاملة الفلاحين ويبقى لهم ما تحت أيديهم ، فاختاروا الفلاحة " أما الابن الأكبر لحسن أباظة (السيد أباظة باشا) فكان كما يذكر التاريخ مثالاً للكرم والنجدة والحزم وسماحة الأخلاق ،وقد عين وكيلاً للداخلية ثم مفتشاً لعموم الأقاليم وكان هو أول من أحرز لقب باشا بين المصريين ثم من بعده سلطان باشا في عهد الوالي سعيد باشا وقد توفي (السيد أباظة باشا ــ بحسب الشاهد الموجود علي قبره بجبانة منشية السادات بالزقازيق- عام ١٢٩٢ هجرية). وتزعم الأسرة بعده المغفور له سليمان أباظة باشا ــ وهو من أبناء الشيخ حسن أباظة - وقد شارك في أحداث الثورة العرابية وقد عين مديرا للشرقية وظل في منصبه ست سنوات وغضب عليه الخديو إسماعيل باشا عندما غضب على إسماعيل باشا المفتش لأنهما كانا صديقين . وحين عقد مجلس لنواب الأمة في عهد الخديو توفيق أنتخب سليمان باشا أباظة عضوا نائبا عن الشرقية وتوفى في (٩مايو سنة ١٨٩٧م)[٢٦].وكان قد شاركت الأسرة الأباظية في النهوض بالعمران وتحديث مدينة الزقازيق مع العديد من كبار الأثرياء مثل (عبد العزيز باشا رضوان) الذي انشأ العديد من المدارس والملاجئ والمساجد (مثل مسجده الكبير وسبيل الماء بمنطقة شارع فاروق حاليا) حيث كان يعمل في تجارة القطن التي عادت عليه بالأرباح التي أنفقها في سبيل أعمال الخير وتحديث عمران مدينة الزقازيق التي استمر فيها فيما بعد حركة مد شبكة السكك الحديدية في الوجه البحري وكثر تملك التجار الأجانب في الزقازيق وابورات لحلج القطن وقد وجد بالمدينة وابورات

مملوكة للخواجات مثل وابور (الخواجة روجيه كناكى) – حيث يقع مكانه قرب عزبة الصعايدة حاليا وقد اندثر - وهو وابور كبير ، ومنازل لسكنه وسكن لمستخدميه في حلج القطن و به طاحونة بخارية ومكبس قطن وحديقة وأضحت الزقازيق مركزا هاما من مراكز تجارة القطن في مصر (٢٧).



وحدثت عدة تطورات كبيرة في مجال تحسين وزيادة اختصاصات مدينة الزقازيق وغيرها من المدن الأخرى وفى أعقاب (سنة ١٨٩٠م) أي عقب إنشاء مجلس بلدية الإسكندرية تم إنشاء مجلس بالزقازيق (عام ١٨٩٣م) وكان يضم أعضاء من الأجانب والوطنيين فيما عرف بالنظام المختلط (٢٨).

وفى (عام ٣١ يناير عام ١٨٨٤م) وافقت نظارة الأشغال العمومية على إقامة عدة شوارع وحواري في مدينة الزقازيق لكي تتمشى مع حركة البناء والعمران التي امتدت خارج المدينة من بين هذه الشوارع الطريق الموصل من قناطر بحر مويس إلى خارج البندر ، وحارة عبد العال وأحمد حلمي والجمال .وفى (يونيو عام ١٨٨٤م) وافقت نظارة الأشغال على إقامة شوارع أحمد أفندي عبد الله وحارة نيقولا مسدية وحارة سالم الختام وشارع ظهر قناطر السبعة والعيد روس وحارة إسماعيل متولي وشارع ماهر وأبو كركور وهي شوارع تغير الآن العديد من أسمائها تبعا لتغير الظروف السياسية والثقافية ،وفى (أكتوبر عام ١٨٨٤م) " وافقت نظارة الأشغال على إقامة حارة محمد على الفراش والعبادى وعلى أفندي الأجزجى وحمد

جوهر وشارع المديرية القديمة . وفى (يناير ١٨٨٥ م) أقيم شارع المحكمة وحارة الصباغ وعلى الشربينى وشارع شون الملح القديم وحارة عمارة وحارة حافظ[٢٩] .وفى (أكتوبر عام ١٨٨٥م) حارة الحمام من ضمن كفر الجامع وحارة شيخ الكفر . وفى (نوفمبر عام ١٨٨٥ م) أقيم الشارع المستجد من شارع المتولي لحد الأرض الفضاء وحارة رخا شتا والعمدة - بجوار مدرسة عبدا لله فكري التجارية بالزقازيق الآن [٣٠] ،وفى (عام ١٨٩٧م) صدرت أوامر أخرى بإلغاء وتعديل وإضافة شوارع أخرى بمدينة الزقازيق . وفى (عام ١٩٠١م) تم استبدال أسماء بعض الشوارع فأطلق على شارع (جسر بحر مويس) اسم شارع (الاستباليه) وأطلق على شارع (البورصة) اسم شارع (عباس) وأطلق على شارع (سليم شديد) اسم شارع (جامع العيدروس) [٣١] .وشارع عباس معروف الآن بشارع " البوسته " ومن الشوارع الشهيرة بالزقازيق شارع (مولد النبي) (وفاروق) وشارع (الشمسي) - نسبة إلى (أمين باشا الشمسي) رئيس تجار الزقازيق- وخلال (عام ١٩١٣م)أيضا كانت قد أنشئت سكك جديدة على نفقة مجالس المديريات في المسافة بين بنها ومنيا القمح وسكة أخرى في الغربية . بنفقة (مقدارها ١٣٨٣٩جنيه مصري) ، ونظرت الحكومة في نفس العام في إقامة طريق بين بلبيس وشبين القناطر والجمالية



والمطرية [٣٢] . وبعد (عام ١٨٦٥م) على أثر وباء الكوليرا الذي حل بالبلاد فـي هـذا العـام ، أنـشئت مستـشفى بالزقـازيق وكـان عـدد الأسـرة بهـا ٥٥ سريرا[٣٣] .وفى (عام ١٨٩١م) التمس أهالي الزقازيق وبعض المدن الأخرى من الحكومة إدخال مجالس البلديات إليها من أجل العناية بها وإدخال أعمال الرصف وصيانة الطـرق وغيرهـا وقـد وافقـت الحكومـة علـى ذلك . وفـى (عـام ١٩١١م) وافقـت الحكومـة علـى إنـارة الزقـازيق وخصـصت لهـا مبلـــغ ٦,٠٠٠ جنيـــه مـــصري



قبل 1922 م



من 1922 إلى 1953 م

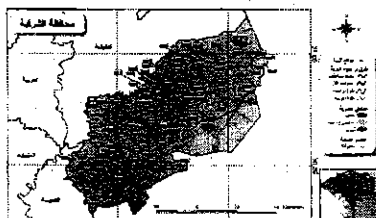


من 1953 إلى 1958 م

شعارات مصر في عهد أسرة محمد علي. الشعار الأول تقريبي. الشعار الثاني أصبح رسميا، وتم اتخاذه عندما أصبحت مصر مملكة في عهد فؤاد الأول. حل الشعار بعد ذلك (سنة 1953 م). انتهت الملكية سنة 1952 م وبقي استعمال الشعار شائعا حتى سنة 1958 م.

وخصصت لمدينة بلبيس ٣,٠٠٠ جنيه مصـري [٣٤] . وفى (يناير عام ١٨٨٣م) وافقت الحكومـة لـشركة التليفـون الـشرقية الإنجليزيـة علـى إقامـة خطـوط تليفـون فـي الزقـازيق وبعض المدن الهامة الأخرى [٣٥] . وبعد عام ١٩١١م أخذت مجـالس البلـديات فـي إقامـة مستشفى دائم بالزقازيق وتحديث المجارى والصرف الصحي ، وفى (٩ نـوفمبر عـام ١٨٩٢م) أصدرت الحكومة أوامرها بإدخال التحسينات الصحية على مراحيض الجوامع والحمامات العمومية بالزقازيق وغيرها من المدن الهامة والحيوية [٣٦] .وفى عام ١٨٧٩ فـي أكتـوبر مـن العـام نفسه وافقـت الحكومـة للخواجـة الايطـالي (جوارينـو) بإقامـة سلخانات بالزقـازيق والمنصورة وفـى عـام ١٩٠٦م أقيمت سلخانات عمومية في منيـا القمح وبني مزار ووافقت الحكومة المصرية عام ١٩٠٩م على نقل إيرادات السلخانات فـي بعـض المـدن البنـادر من ميزانيـة الحكومـة إلـى ميزانيـة المجـالس البلديـة والمحليـة بدعوى أن موارد هذه المدن لا تكفى ومن ضمنها الزقازيق [٣٧] .

وبحلول الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، تزايد تيار التحديث في الشرقية وبات الطريق مفتوحا بعدما وافق الأجانب على دفع ضرائب لإدخال التحسينات على المدن ، وكانوا قبلا يرفضون ذلك ، كذلك أقبل الأهالي على دفع نفقات هذا التحديث [٣٨] .وفـــي (سنة ١٨٩٠ م) اهتمت زاد الاهتمام الأجنبي بفتح مراكز ثقافية ومدارس لتعليم اللغات فتأسست مدرسة للبنين بالزقازيق ووصل عدد تلاميذها في (سنة ١٩٠٤ م) ٣٥٢ تلميذا وقد كانت هناك رغبة قوية من أبناء الزقازيق لدراسة اللغة الإنجليزبة علي أيدي الناطقين بها ولذا اهتمت المدرسة باستقدام مدرسين أمريكيين لتدريس اللغة في هذه المدرسة ولكن لم يستمر الأمر طويلا حينما لم تستطع المدرسة تدبير المرسلين الذين يستطيعون الإقامة في الزقازيق وإدارة هذه المدرسة فأغلقت المدرسة أبوابها في أواخر الخمسينيات.وفي منتصف الأربعينيات قام الملك فاروق بزيارة شهيرة إلى صان الحجر وعاد منها يحمل صناديق الذهب والفضة إيذانا بفتح الطريق من بعده للكثيرين من الحكام ولصوص الآثار لنهب الثروة القومية . ومع توالي الاكتشافات تعالت معها صيحات الشراقوة وحزنهم على تاريخهم المنهوب فكانت صان الحجر عرضة للنهب حيث تماثيل أبي الهول التي تم



نقل اثنين منها لمتحف اللوفر بفرنسا واثنين آخرين إلى متحف (سان بطرسبرج) ولوح الأربعمائة عام لرمسيس الثاني وهو الأثر الفرعوني الوحيد الذي يذكر تقويما معينا وقطع عديدة أخرى تم نقلها إلى متاحف العالم واستمر مسلسل السرقات ومازالت العبارة التي خطها د. **محمود الشريف** في سجل الزيارات بصان الحجر :" **إلى أعظم من زرت إلى أعرق من رأيت إلى صان الحجر . سأعمل جاهدا حتى تكون مدينة عالمية** " يتردد صداها في سماء المدينة الخالدة في انتظار يد وطنية وجريئة تخرج بها إلى حيز التنفيذ!!

أسانيد الفصل الثالث

(١) كريم ثابت ، **محمد على** ، دار المعارف بدون تاريخ صـ٢٥٣ .

(٢) حسين أحمد أمين ، **مملوك في لندن** ، مجلة الهلال يناير ١٩٨٦م صـ٨٢ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم ، الجزء الثاني** ، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م مطبعة النهضة صـ٧٧

(٤) للمزيد أنظر : **عبد الرحمن الرافعى** ، **ثورة يوليو ١٩٥٢م " تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ ــ ١٩٥٩م** ، دار المعارف الطبعة الثانية صـ٤٠ وما بعدها " .وانظر :لطيفة محمد سالم : **يوم رحيل فاروق** (مقال) الأهرام ٢٤ يوليو ٢٠٠١م

(٥)عبد الرحمن الرافعى ، **تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث عصر محمد على** ، الطبعة الأولى ١٩٣٠م مطبعة النهضة صـ١٥ ، صـ١٦ .

(٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون ، **كفاحنا ضد الغزاة** ، النهضة المصرية (القاهرة ١٩٥٧) صـ٢٧٦ .

(٧) الرافعى ، **عصر محمد على** ، مرجع سابق صـ٦١١ .

(٨) المرجع السابق صـ٤٥٠، للمزيد أنظر جمال بدوى (**محمد على وأولاده**) مكتبة الأسرة ١٩٩٩م .

(٩) المرجع السابق صـ٥١٩ ، صـ٥٢٦ .

(١٠) محمد رمزي ، **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م** ، الجزء الأول القسم الثاني مطبعة دار الكتب ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ صـ١٣٨ .

(١١) المصدر السابق صـ١٢٩ .

(١٢) الرافعى ، **عصر محمد على** ، مرجع سابق صـ٥٤٤ .

(١٣) المرجع سابق صـ٥٤١ .

(١٤) نفسه صـ٥٤٩ .

(١٥) نفسه صـ٥٤٤ .

(١٦) **مشتول السوق : بالشرقية، كانت هذه المنطقة قديما ضمن مقاطعة (هك آت)الفرعونية وكانت مشتول قريبة من مجرى قناة سيزوستريس الفرعونية وكان لنهر النيل بالمنطقة الفرع البليوزي ومكانه الحالي بالمركز جزء من البحر الشبيني وعاصرت المنطقة حكم البطالمة والرومان قبل الميلاد وسميت مشتول بهذا الاسم نسبة إلى حاكمها الروماني أشتولى كما اقترن اسم الطواحين بها لوجود عدة طواحين بها فوق تلالها المرتفعة وكانت تدار بقوة الرياح لطحن الغلال اللازمة للجيش وكان بكل بيت طاحونة صغيرة يدوية .وقد مر عمرو بن العاص بمشتول بعد أن فتح بلبيس وهو فى طريقه للفسطاط عام ١٩ هجرية ـ ٦٤٠ميلادية وشيد بها مسجدا صغيرا وقد ظهر مكان هذا المسجد بخريطة بندر مشتول طبعة ١٩٥٠ باسم موقع العمري غرب مسجد الأربعين الحالي .ثم سميت بمشتول السوق نسبة إلى إنشاء أول وأكبر سوق بهذه المنطقة الواسعة منذ زمن بعيد وأصبح مكان هذا السوق حاليا عمارات السوق بجوار محطة السكة الجديدة وشيد محمد على باشا الكبير بمشتول السوق عام ١٨١٥م مصنعا كبيرا للأسلحة والذخائر وكان على شكل أقبية بالمنطقة التي أطلق عليها الجبخانه (أي مكان السلاح باللغة التركية) ومكانها الحالي شمال مسجد أبو سالم ومازال كبار السن يعرفونها بهذا الاسم .**

(١٧) محمد رمزي ، **القاموس الجغرافي** ، مرجع سابق صـ٨٩ .

(١٨) المرجع السابق ، صـ٩٠ .

(١٩) نفسه صـ٩١ .

(٢٠) نفس المرجع صـ٩٢ .

(٢١) عبد الرحمن الرافعى ، **عصر إسماعيل الجزء الثاني** دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٨٢م صـ٢٠ .وانظر: محفوظات قصر عابدين ، محفظة ٢٨ وثيقة (٥٦٢٠) ، وانظر :عبد العزيز الشناوي :**السخرة في حفر قناة السويس** ، القاهرة ١٩٥٨م،ص١٥٨

(٢٢) المرجع السابق :ص٢٢ . وانظر :أحمد بدوي محمد الشريعي :**مركز الزقازيق دراسة في جغرافية العمران الريفي** ،**رسالة ماجستير** ،آداب الزقازيق ، ١٩٨١م ص٣٦ .

(٢٣) محمد رمزي ، **القاموس الجغرافي الجزء الأول** ، القسم الثاني صـ٩٢ .

(٢٤) عبد الرحمن الرافعى ، **تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث ، عصر محمد على** ، مرجع سابق صـ٥٧١ ، صـ٥٧٢ ، صـ٥٧٣

(٢٥) كريم ثابت ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، صـ٦٥ .

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى ، **الثورة العربية والاحتلال الانجليزي** ، الطبعة الأولى ١٩٣٧ مطبعة النهضة صـ٤٩٢ ، صـ١٨٣ .

(٢٧) حلمي أحمد شلبي ، **فصول في تاريخ تحديث المدن في مصر (١٨٢٠ ـ ١٩١٤ م)** سلسلة مصر النهضة الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨م صـ٤٢ وما بعدها .

(٢٨) المرجع السابق صـ٨٨، صـ٨٩ .

(٢٩) أحمد حلمي ، مرجع سابق ص ١١٧وللمزيد أنظر: **تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان** عام ١٩٠٣م مرفوع من كرومر إلى ناظر خارجية انجلترا .

(٣٠) المصدر السابق ، المرجع السابق صـ١١٧ .وجريدة الأتحاد٣١\٣\١٩٠٢م

(٣١) حلمي أحمد شلبي ، **تحديث المدن** صـ١٢٣ ، المرجع سابق صـ١٣٥ .

(٣٢) عبد الرحمن الرافعي ، **عصر إسماعيل ، الجزء الثاني** ، مرجع سابق صـ٢٨ .

(٣٣) حلمي أحمد ، مرجع سابق صـ١٥٣ وأنظر **جريدة الاتحاد المصري** عدد ١٨٩٢/٨/٧ .

(٣٤) حلمي شلبي ، مرجع سابق صـ١٥٤ .

(٣٥) المرجع السابق صـ١٦٥ .

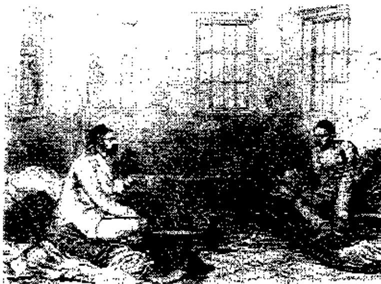
(٣٦) المرجع نفسه صـ١٧١ ، ١٨٣،صـ٢٠٣ .

(٣٧) نفسه صـ٢٢٠ وللمزيد أنظر " لطيفة سالم : **مصر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨** الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤م .صـ٧٧ .

الفصل الرابع

ثورة ١٩١٩م .. الشرقية ثائرة !!

بالرغم من الركود الذى اتصفت به الحياة الريفية بالشرقية وشاركها باقى الريف المصرى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، فما من شك فى أن الاحداث التاريخية التى مر بها الريف المصرى



كله كانت سلسلة متلاحقة متتابعة فى حركة ديناميكية لا تتوقف ، ولذلك فلا يمكن من الناحية التاريخية فصل الأحداث التى مر بها فى ثورة ١٩١٩م عن تلك التى مر بها خلال فترة الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ -١٩١٨م) عن احداث فترة الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ -١٩١٤م) بل عن أحداث ما قبل عام ١٨٨٢م .

فالواقع أن ثورة ١٩١٩م كانت النتيجة المتوقعة لسياسات بريطانيا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبل وخلال فترة احتلالها لمصر حتى



نهاية الحرب العالمية الاولى ، تلك التصرفات التى نجمت فى الأصل عن تحول أوربا إلى النمط الرأسمالى ، وانطلاق الرأسمالية الصناعية فى جميع انحاء العالم ومنها مصر، وتغلغل النفوذ الأجنبى بمقدرات البلاد ، فكان لا بد من قيام الثورة العرابية(*) بهدف إحداث تغيير جذرى فى مختلف

---

* ولد أحمد عرابى زعيم الثورة العرابية فى ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هجرية (نوفمبر ١٨٤١ بقرية "هرية رزنة من أعمال مركز الزقازيق " وعائلته عريقة النسب متعددة الفروع ، وأقدم فروعها عائلة " المقالدة " الموجودة بالخطارة الصغرى من أعمال مركز فاقوس ، ويذهب البعض بأن نسب هذه العائلة يتصل بالحسين سبط رسول الله ﷺ " والجدير بالذكر بأنه بعد حادثة ٩ سبتمبر ١٨٨١ م بعابدين وانتهاء المحادثة بين عرابى والخديو توفيق تقدم عرابى بالشكر على الخديو وساد السلام ظاهريا بين الخديو والجيش وتعين شريف باشا رئيسا للنظارة الجديدة ، ثم تلا ذلك حضور وفد عثمانى ليستطلع أحوال مصر وقررت الوزارة أن ينتقل عرابى بكتيبتة إلى رأس الوادى بالشرقية وأن ينتقل عبد العال حلمى بكتيبته إلى دمياط ، ولما وصل عرابى لمدينة الزقازيق خطب فيها عرابى خطبة طويلة جاء فيها : " أنا أخوكم فى الوطنية واسمى أحمد عرابى . ولدت في بلدة " هرية رزنة من بلاد الشرقية هذه . وها أنذا واقف بين أيدى الأهل والخلان وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ..".

وبعد استقرار عرابى فى مكانه الجديد بيومين دعى مع عدد كبير من ضباطه إلى وليمة أقامها **أمين بك الشمسى** رئيس تجار الزقازيق تكريما لهم ، ثم توالت الولائم للغرض نفسه منها وليمة **أحمد بك السيد أباظة** " بشرويدة" ووليمة **الشيخ محجوب عمدة** " العصلوجى " ووليمة **سليمان بك السيد أباظة** =ووليمة **سليمان باشا أباظة** وغيره من وجوه الشرقية الذين

-أرادوا الاحتفاء بابن بلدهم وإظهار تقديرهم واعجابهم به ، وأثناء اقامته برأس الوادى دعى لوضع الحجر الأساسي للمدرسة الابتدائية الأميرية بالزقازيق وخطب خطبة فى مزايا التعليم وفضل العالم على الجاهل ، ونوه بوجوب الاستعداد لخدمة البلاد فى المستقبل وقد رحل عرابي عن الحياة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ م ، وقد وضع قبل وفاته مذكرات عن الثورة العرابية سماها " كشف الستار عن سر الاسرار " (١) .

وقد واجهت طبقة الأعيان بعد فشل الثورة العرابية إجراءات عنيفة ضدهم فمنهم من صودرت املاكه وحرم من حق امتلاك أى أملاك فى الديار المصرية سواء بطريق الإرث أو الهبة او الشراء، مع بيع أملاكهم وتخصيص ثمن البيع لسداد تعويضات من أضيروا من الثورة ، ومن هؤلاء أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وعلى فهمى ويعقوب سامى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت وعوقبوا أيضاً بالنفي لجزيرة سيلان(٢).

ومنهم من حددت إقامته فى بلده تحت رقابة البوليس مع دفع تامين مالى كبير ومن أمثلتهم أحمد اباظة من الشرقية دفع ٢٠٠٠ جنيه تأمين وحددت اقامته بخمس سنوات وأمين بك الشمسي دفع ٥٠٠٠ جنيه تامين وحددت إقامته خمس سنوات ، وهناك من حددت اقامته فى قريته مع وضعه تحت مراقبة البوليس وتجريده من كافة الامتيازات ومن امثلتهم حسن الأخضر وأبو زيد غانم من الشرقية ومن العمد من عزل من منصبه وحرم من امتيازاته مثل بركات الديب عمدة القرين شرقية ومحمد امام الحوت عمدة الصالحية شرقية (٣). ومصطفى بك نايلي مفتش بردين وتجريد عدد من العلماء من علامات الشرف مثل : على مكاوى ، وفصل عدد كبير من ضباط الجيش من امثلتهم صقر افندى دهب ملازم أول (من الزنكلون)(ولاتزال عائلة دهب بالزنكلون يتيهون فخرا به) ، وحمد أفندى حسين ملازم أول (ههيا) و يوسف الجندى ملازم ثانى (أبو كبير) وسلامة ناجى ملازم أول(سنهوت البرك)، سليمان متولى (كفر الغنيمى) (انظر الرافعي : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ط الاولى ١٩٣٧ ، النهضة ، ص ص ١٥٦ ، ٤٩٢، ٤٩٤ ، ٥٠٥ .

نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد التخلص من النفوذ الأجنبى فى البلاد ولكن انتهت أحداثها بانفراد بريطانيا باحتلال البلاد عام ١٨٨٢م ، ذلك الاحتلال الذى دام ٧٤ عاما ، وبالرغم من أن جميع فئات الشعب المصرى قد عانت معاناة قاسية خلال تلك الفترة وما أعقبها خلال الحرب العالمية الأولى من تصرفات السلطة العسكرية البريطانية نحو الفلاحين وجمع حوالى مليون ونصف مليون فلاح بالتطوع الإجبارى والسخرة والكرباج للعمل فى سيناء والعراق وجبهات حربية أخرى والتى كانت من أهم العوامل التى أدت لزيادة ثورة مارس ١٩١٩م اشتعالا ؛ وكان الريف المصرى أكثر فئات الشعب المصرى معاناة وخاصة من الناحية الاجتماعية والنفسية والاقتصادية ، وبرغم ذلك لم يستكن الشعب فى ثورته ولم يتراجع الفلاح المصرى بصفة عامة والشرقاوى بصفة خاصة امام حوادث القتل والمحاكمات العسكرية ، وإنما زادته عنادا واصرارا كما توضحها السطور القادمة .

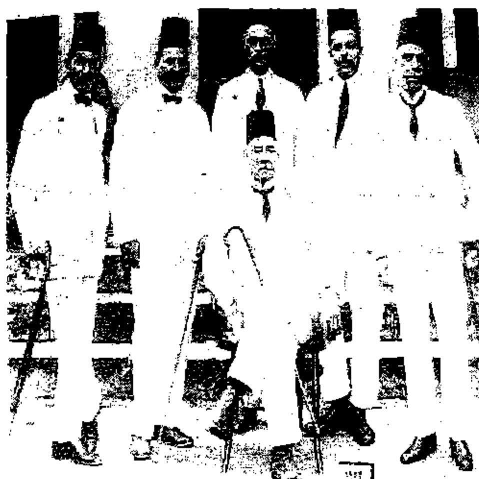
امتازت ثورة ١٩١٩م بأنها ثورة شعبية وشاملة ، فلم تقتصر حوادثها على مدينة القاهرة فقط أو على مدينة الإسكندرية ، بل إن حوادث الثورة عمت مصر جميعها وانتشرت بمجرد سماع أخبارها إلى كافة أنحاء مصر ولبت الشرقية نداء الحرية ، لا فرق في ذلك بين غني وفقير ، كبير أو صغير ، رجل أو امرأة ، فالشرقية كمثيلتها من المدن والأقاليم الأخرى : أمام الثورة رجل واحد وقلب واحد .لنجد الشرقية أنها قد ظلت جزءاً من الحركة الوطنية التي عبرت عنها ثورة ١٩١٩م ، فعندما اشتعلت المظاهرات احتجاجا على السياسة البريطانية الرامية إلى فصل السودان عن مصر وما قامت به الإدارة الإستعمارية في جنوب الوادي من عمليات قمع للحركة السياسية الداعية إلى وحدة البلدين عام ١٩٢٤م ولم تملك صحيفة الأهرام آنذاك سوى ان

تخصص مساحات واسعة عن دور الأقاليم بما فيها الشرقية فى تلك الحركة.

ففى عدد الأهرام الصادر يوم ٢٩ يونيو من ذلك العام وتحت عنوان "المظاهرات السلمية للسودان فى مصر – تأثر الرأى العام واحتجاجه " أفردت الأهرام مساحة كبيرة لمظاهرات الشرقية والغربية والدقهلية والبحيرة والقليوبية والمنيا وقنا. فيذكر د. يونان لبيب رزق فى ديوان الحياة المعاصرة الحلقة رقم ٣٥٤ بجريدة الأهرام ٢٠٠٠/٩/٧ : " يبدو أن اهل الزقازيق كانوا الأكثر حماسا فقد افردت الاهرام لما جرى فيها مكانا خاصا فى عدد اليوم التالى تحدثت فيه عن المظاهرة الكبرى التى اخترقت شوارع الزقازيق تهتف لجلالة ملك مصر والسودان ولانصار وحدة وادى النيل فى القطر السودانى الشقيق ووزع الطلبة إعلانا بمقاطعة البضائع الإنجليزية والصقوها على جدران الشوارع ، ولم تقتصر المظاهرات العنيفة على الزقازيق بل شاركت الزنكلون وأبو حماد وبلبيس .

وقد رصدت (جريدة الأهرام) فى ذلك العام ثورة وتذمر أبناء الزقازيق من أحد الأجانب كان يتاجر بالحشيش والكوكايين علانية تحت حماية

الإنجليز ووصف مراسل الأهرام كيف أن مأمور البوليس المصرى بالشرقية دبر كميناً لهذا الرجل وهو خارج محله ليقبضه متلبسا وهو يحمل " طوربة مملوءة بالحشيش وأربعمائة جرام كوكايين وكيف ابتهج الأهالى بالزقازيق من جراء هذه الضربة الأمنية لأوكار الفساد الأجنبى ".



أما مدينة منيا القمح فقد قدمت العزيز من أبنائها فى أرض المعركة ووطيس الثورة .وكان ذلك فى معركة كبيرة يوم(الأحد ١٦ مارس ١٩١٩م)، وبلغ عدد قتلى معركة ذلك اليوم نحو "١٥٠" قتيلاً وعددا آخر وقد سبق تلك المعركة مظاهرة كبيرة من طلبة المدارس يوم السبت ١٥

مارس ، وفى تلك المظاهرة طاف الطلبة(*) بشوارع المدينة وهتفوا لمصر وحرية البلاد امام المحكمة الشرعية والمحكمة الاهلية ، كما تصدوا ديوان المركز وقابلهم هناك معاون الإدارة واسدى إليهم النصائح بالتزام الهدوء والسكينة (٤).

أما حوادث اليوم التالى (الأحد ١٦ مارس) فكانت دموية ورهيبة ، فقد حدث ان جماهير المدينة قد خرجت بأعداد كبيرة تزيد عن ٥٠٠٠ متظاهر هذا بخلاف أعداد أخرى جاءت على منيا القمح من القرى المجاورة للاشتراك فى المظاهرة.وسارت تلك الجموع الكبيرة فى موكب ضخم واتجهت إلى مبنى المركز وهناك اطلقوا سراح المسجونين والمعتقلين ثم اتجهوا بعد ذلك إلى محطة السكة الحديد وهناك حدثت الواقعة حيث أطلق الجنود الإنجليز

---

* نستطيع أن نقول: إن الطلبة كانوا هم الطليعة لثورة ١٩١٩م فى الأقاليم وبخاصة الشرقية ، ورحلة الألف ميل تبدا بخطوة ، ومما ساعد على انتشار الثورة فى الأقاليم مثل طنطا ، وزفتى ، منيا القمح، الزقازيق ، شبين الكوم ... إلخ .. هو انتقال كثير من طلبة القاهرة إلى بلادهم وقراهم بعد اضراب مدارسهم واغلاقها فحملوا معهم إلى أهليهم ومواطنيهم الافكار الثورية وأساليبها ، ولقد شارك طلبة المعاهد الدينية بالأقاليم بدور أساسى فى حركة الطلبة كما حدث فى الزقازيق وطنطا ودمياط واسيوط والمنيا والاسكندرية وغيرها (٥).

. والاستراليين بالمحطة الرصاص عليهم فسقطت الأعداد الكبيرة من القتلى والجرحى.

وبلغ عدد قتلى ذلك اليوم نحو ١٥٠ قتيلاً ، وبذلك تكون مدينة منيا القمح(**) ، المدينة الصغيرة قد قدمت هذا العدد الكبير من القتلى الشهداء ، واصبح يوم ١٦ مارس يوما مشهورا بالمدينة ، واصبح ذلك عيدا قوميا لمركز منيا القمح يجتمع فيه ابناء منيا القمح كل عام لإحياء ذكرى الشهداء البواسل . وليتذكر كل وطني بالشرقية احداث ذلك

(*) **مدينة منيا القمح : قاعدة مركز منيا القمح ، هي كانت من القرى القديمة أسمها الأصلي مني القمح وردت به في قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد وفي التحفة من أعمال الشرقية وورد في الانتصار محرفا باسم(مني القمح)وفي تاريخ سنة ١٢٢٨هـ منية القمح وهو اسمها الحالي في جدول المساحة القديم وعلى الخريطة وأما(منية القمح) وهو المتداول فهو اسمها في جدول الداخلية(٦).

وكانت منيا القمح من توابع مركز العزيزية إلا أنه لوجود بلدة منيا القمح على السكة الحديدية وتوسطها بين بلاد المركز صدر امر في سنة ١٨٧٥ بنقل ديوان المركز والمصالح الاميرية الأخرى من العزيزية إلى منيا القمح وسمي المركز بها من تلك السنة ومن البلاد الحديثة العهد التي ألحقت بمركز منيا القمح عددها ٣٧ قرية ومنها كفر الصعايدة وكفر الزقازيق القبلي ، كفر ايوب عوض وكفر بدوي رزق ، كفر حسن عكاشة ، كفر ميت بشار ، كفر نسوة ، كفر يوسف سمري.

=وعدد القرى القديمة اللاحقة بمركز منيا القمح ٤٧ قرية منها كفر علي غالي، كوم حلين وملامس شلشلمون وبني هلال ، بيشة عامر ، الميمونة ، القراقرة ، العزيزية.

اليوم المؤلم عندما اطلق الجنـود الإنجليـز والاسـتراليين الرصاص على جمـاهير المدينـة التـى أجتمعـت فـى ساحة المحطة وما لبثت يد الغـدر والخديعـة تحـصرهم حصراً .

وذلك بعد أن احكموا حـصارهم بـاغلاق مزلقـان المحطة وفتح الكوبرى الـصغير الموجـود علـى بحـر مويس فأصبحت الجماهير بـذلك محـصورة بـين بحـر مويس ومحطة الـسكة الحديـد وبعد لحظات مـن حـصارهم على هذا النحو مـرت احـدى طائرات السلطة والقت علـيهم اشارة بضرب المتظـاهرين ، وفى لحظات أخـذ الرصـاص



ينهال عليهم من كـل اتجـاه ، فـسقطت تلـك الجمـاهير الكبيرة من القتلـى والجرحـى ، أمـام المزلقـان ، فـى منحدر كبير ، وأصـبح يعـرف بعـد ذلـك عنـد أبنـاء المدينة باسم " جوزة الانجليـز " والتـى تـشبعت بـدماء الثوار التى سالت انهارا وهـى تنـادى باسـم مـصر ولا تحمل مـن الـسلاح إلا العـصى وأغـصان الأشـجار، تنادى باسم مـصر لتجابـه باسـلحة حديثـة ومدافـع متطـورة .

وبعد سقوط هؤلاء القتلى ، قام الجنود الإنجليز بتقليب وتفتيش تلك الجثث وسرقوا من الأصابع والأيدى والجيوب ما وجدوه من محافظ أو ساعات أو خواتم ذهبية ، وكان نقل الجثث بالجملة ، وأخذ مفتش صحة المركز فى استخراج تصاريح الدفن لكل عشرة منهم .وبعد مرور ٥٠ عام على ثورة ١٩١٩م نقلت لنا جريدة المصور شهادات بعض ممن عاصروا المذبحة فى ١٦ مارس ١٩١٩م :**فيقول الحاج أحمد المصرى (شاهد عيان للمذبحة):**

فى ذلك الوقت كانت مصر كلها تسير فى مظاهرة وفى يوم ١٥ مارس ، عسكرت فى الليل الفرق الاسترالية والانجليزية فى المحطة ، فى اليوم التالى ١٦ مارس خرجت المظاهرة ، وكان عددها ٢٠٠ رجل اخذت تكبر وتكبر حتى اصبحت اكثر من ٥٠٠ رجل ، فمشيت وراء المظاهرة وعدينا السكة الحديد فى طريقنا إلى المركز لاخراج المعتقلين ووجدنا عساكر الانجليز تحاصر المكان وقفلوا بوابة المزلقان وفتحوا الكوبرى ومرت طيارة من فوقنا ورمت إشارة للعساكر الإنجليز ، وفى نفس الدقيقة أطلقوا علينا رصاص البنادق والمدافع من كل جهة ... ودكتور المركز الدكتور صبرى نبيه يغطى

تصاريح الدفن لكل عشرة مرة واحدة وفى اليوم التالى ١٧ مارس منع الانجليز المرور فى شوارع البلد بعد الساعة الثامنة مساءاً".

بطولة الشهيد الشرقاوى على عسكر :تروى السيدة مباركة عسكر شجاعة أخيها الشهيد على عسكر فتقول : "كان أخى على عسكر قد خرج للمظاهرة وفى الطريق طلبت منه أن يعود ولكنه صرخ فى وجهى قائلاً : إحنا رجالة ولسنا نساء .وعاد بعد ذلك إلى اخى محمولا على باب خشبى ، ومنذ ذلك اليوم لم ينطفئ نار الحقد فى قلبى من ظلم الانجليز (٧).

الشهيدة الشرقاوية يمن بنت صبيح : وقد تحدث الفلاح " العوضى العطار " ٧٠ عام عن مذبحة ١٦ مارس وكيف خرج مأمور المركز الرجل الوطنى " محمد افندى اسماعيل " على حصانه ليتقدم المظاهرة .. وكيف اشترك القسس والشيوخ بالمظاهرة ، ويروى كيف سقطت يمن بنت صبيح على الأرض وأمامها جنينها وأحشاؤها حيث كانت تحمل قفة الطحين فى طريقها إلى قريتها ، فقابلها عسكرى استرالى ، فأوقفها للتفتيش فخافت وصرخت وحاول العسكرى الاعتداء على شرفها؛ فقاومته بشدة

فـضربها بالـسنكى واتـشقت بطنهـا وخـرج جنينهـا ووقعت على الأرض وراحت شهيدة للوطن ".

الشرقاوى العملاق عبد الحميـد البيطـار :يـروى ابنه عبد الحميد الذى كان جنينـا فـى بطـن أمـه يـوم استشهاد والده عبد الحميد البيطار.. كيـف أن أمـه قالـت له : أن والده كـان عملاقـا قـوى البنيـة اسـتطاع أن يضرب وحـده مجموعـة مـن الجنـود الاسـتراليين إلا انهم ضربوه بالنار ومثلوا بجثته بعد قتله .

إبراهيم عوض :يروى المذبحـة باعتبـاره شـاهد عيان فيحدثنا عن رجل ضـخم الجثـة سـقط برصـاص الجنود بعد ضـربه عـدد كبيـر مـنهم وآخـر اختـرق الرصـاص بطنـه وتـدلت احشاؤه وشاب اصـابته رصاصة قاتلة فـألقى بنفـسه فـى البحـر ليطفى النار المشتعلة بجسده فتظهـر جثتـه بعـد اسـبوع عند قناطر التسعة بالزقـازيق ، وطفلـة بريئـة تـصرخ وتبكى لقتل اختها الصغيرة وفـى يـدها زجاجـة فارغـة



وهى تصرخ وتقول: احنا من كفر أبو عبد الله ، كنا رايحين نشترى بقرش جاز لكن اختى ماتت "[٨].

فاقوس .. ثائرة !!

أظهرت فاقوس وما جاورها من قرى عن وطنية بالغة ، ووقفت بقوة وحماس أمام الحوادث ، وقد هال سكانها أخبار الثورة وسقوط الشهداء الأبرار فى كل مكان ، ومن ثم قررت فاقوس بكامل سكانها وقراها مواجهة سلطة الاحتلال حتى ولو كان ذلك مؤديا إلى استشهاد جميع الثوار ، ولم يرهب فرد واحد من سكانها أو يتراجع ، وقد بدأت حوادث فاقوس فى الايام الأولى للثورة حيث بدأت فى ١٥ مارس إلى ٢١ مارس ١٩١٩ وكان الطلبة كالعادة هم طليعة الثوار باعتبارهم المعبرين عن الآمال والأهداف الوطنية للسواد الأعظم من الشعب وشاركتهم باقى طوائف الشرقاويين من أهل فاقوس ، وانضم إليهم أبناء المراكز والقرى المجاورة وقام الثوار بتدمير الخط الحديدي والكوبرى المقام على ترعة البحر وقاموا بمهاجمة المركز والإستيلاء على ما فيه من السلاح وظلت الثورة مشتعلة بالمظاهرات تردد : " يحيا العدل ، عاش الوطن ، نريد الاستقلال " ، ولم يخمدها سوى بطش الاحتلال ، وفى محاكمات الثورة حوكم جماعة من أعيان فاقوس إذ نسب إليهم التحريض والاشتراك فى الاضطرابات والإتلافات ، واتهم فيها كل من : سليمان بك مصطفى خليل ، ومحمد علي المستى ، عبد العزيز عبدون ، السيد الاسكندرانى ، محمد غنيم عبدون ، حسن عبدون ، على بك مصطفى خليل ، عيداروس زيد جمعة ، وحكم بالاعدام على الأول واستبدل بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وحكم (بعد تعديل الحكم) على الثانى والرابع بالسجن ثلاث سنوات ، وعلى الثالث والخامس بالسجن خمس سنوات وبراءة الباقين[٩] .

كانت تلك بعض من ملامح صور البطولة بمدينة فاقوس(*) وقراها فكانت ملحمة حب من أجل مصر .

ويسجل الأستاذ عبد الرحمن الرافعي نزوع اهل الشرقية نحو النزاهة والعدل والحرية في أول انتخابات برلمانية في ابريل سنة ١٩٢٣م على أثر الثورة المصرية وتم تقسيم الشرقية إلى ١٦ دائرة انتخابية وسقط رئيس الوزراء يحيى إبراهيم باشا في دائرته "منيا القمح " وفاز عليه مرشح الوفد وكانت هذه الانتخابات نموذجا لنزاهة الانتخابات الحرة .

تلك كانت بعضا من كثير لصور البطولة لأبناء الشرقية لا تتسع مئات الصفحات لترويها ، ولكن اكتفينا بهذه المشاهد السابقة من ملحمة هؤلاء الأبناء الذين انجبتهم الشرقية لأم الرؤوم مصر ..

---

*__مدينة فاقوس__ : قاعدة مركز فاقوس وهى من المدن القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال إن اسمها المصرى Pakes والقبطى Fakousa ووردت فاقوس فى كتاب البلدان لليعقوبى من مدن مصر فى الحوف الشرقى ووردت فى كتاب قدامة باسم فاقوس الغاضرة ، وفى كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى فاقوس من مدن الحوف الشرقى .

وفاقوس الحالية : وملحقاتها قد استجدت فى العهد العثمانى وقد أقيمت فى وسط الأراضى الزراعية بالقرب من أطلال المدينة القديمة ، وأما فاقوس البلد الحالية هذه فتقع فى الجنوب الشرقى لمحطة فاقوس وعلى بعد ١٥٠٠ متر منها ، وكانت فاقوس من قرى مركز العارين ، فلما أنشئ مركز فاقوس سنة ١٨٨١ جعلت فاقوس قاعدة له لوقوعها على محطة السكة الحديدية ، وبسبب السياسية الحزبية اصدرت وزارة الداخلية قرارا فى سنة ١٩٣١ بتقسيم ناحية فاقوس إلى ثلاث قرى غحداها هذه وتعرف بفاقوس البلد والثانية قسمأول فاقوس والثالثة قسم ثانى فاقوس .. وبسبب هذا التقسيم =أصبح ديوان المركز والمصالح الاميرية الأخرى واقعة كلها فى ناحية قسم أول فاقوس(١٠).

الحي الذي نسيناه .. وإلى جانب هـؤلاء الأبطـال نـشير ايضا إلى أبناء الشرقية قد سـاهموا بالنـضال مـع أبنـاء باقى المحافظـات الأخـرى مثـل استـشهاد الـشرقاوى محمد شاهين سمرة من ميت ابـو عربـى شـرقية ؛ حيث شارك فى المقاومـة ببلـدة ميـت القرشـي مـن اعمال مركز ميت غمر ، كمـا شـارك ابنـاء الـشرقية أخـوانهم فـى المنـصورة ودميـاط والقـاهرة وطنطـا والبحيرة... إلخ . والتـى تحـدث عـنهم الأسـتاذ عبـد الرحمن الرافعي باستفاضة.

وهكذا كانـت ملحمـة النـضال وروعـة الكفـاح وبطولة الشهداء بالشرقية التى تسطر بـأحرف مـن نـور لكل شهيد ولكل وطنى من ابناء الزقـازيق ومنيـا القمـح وفاقوس ، وغيرها من المـدن والقـرى .. راحـوا فـداء لمـصر وشـرفا لهـا ، واصـبحت وقـائع ثـورتهم واستشهادهم ونـضالهم قصـصا تحكـى بفخـر وعـزة وكرامة لتكون وساما على صـدر كـل مـصري يـؤمن بتراب هذا الوطن .

أسانيد القسم الرابع

١- سعاد ماهر : **محافظات الجمهورية العربيــة المتحــدة وآثارهــا الباقيــة فــى مــصر الإســلامية** ، القــاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٧ .وانظــر : نصر دياب ، أحمد عرابى ، **صفحة من تــاريخ مــصر المجيــد** مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٤٨ .

٢- المرجع السابق ، ص ص ٣٤ ، ٣٥ .

٣- حنان حسن جمعة: **شهداء الوجه البحرى** ، **شهداء ثورة ١٩١٩** ، الهيئةالمصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ١١٥ .

٤- المرجع السابق ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

٥- عاصم محروس عبد المطلب ، **دور الطلبة فى ثــورة ١٩١٩** ، سلــسلة مــصر النهضة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ ، ص ٦٦.

٦- محمــد رمــزى ، **القــاموس الجغرافــى** ، الجــزء الأول ، القــاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٥ ، ص ١٤٦.

٧- حنان حسن جمعة ، **مرجع سابق** ، ص ١١٧.

٨- المرجــع الــسابق ، ص ١١٨ ، ١١٩ للمزيــد ، انظــر **جريــدة المــصور** ٧ مارس ١٩٦٩م.

٩- عبد الرحمن الرافعى ، **ثورة ١٩١٩ تاريخ مــصر القــومى** ، الجــزء الثــاني مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ، ص ٨٤ .

١٠- محمد رمزى ، **مصدر سابق** ، ص ص ١١٦ - ١١٧ .

الفصل الخامس

المواويل والأغانى الشعبية فى الشرقيـــة

إن الكلمة المبدعة مرآة صادقة تجسد تفاعل الأديب مع من حوله من ظواهر ومعطيات، ورحلة الكلمة المبدعة لا تنتهى ، فهى دائما متجددة ، وكلما وصل المبدع إلى غاية برقت أمامه غايات أُخر أشوق وأمتع مما وصل إليه ، فإذا به يواصل التيار ويزف ألحاناً جديدة ويرتاد دروباً لم تطأها من قبل قدم ويحلق فى آفاق لم يغرد فى سمائها طائر من قبل وكم ازدهرت على ضفاف النيل حدائق الإبداع ، وكم تألقت فى واديه روائع الفنون.

وفى الشرقية (صمام أمان وادي النيل) والتى استقبلت مواكب الإسلام واستقرت فى ربوعها الأصالة العربية ، فى هذه المنطقة كان للكلمة تألق وازدهار وجولات وصولات فى كل مناحى المعرفة وآفاق الإبداع ويزدهى بستان الإبداع على أرض الشرقية بشتى أنواع الزهور الأصيلة التى فاح ويفوح عبقها يعطر الزمان والمكان ، وقد تلونت الأغنية الشعبية فى الشرقية بألوان زاهية وتنقلت بألوانها تسر الناظرين وتمتع النفس وتريحها .

ولعلنا نلحظ أن مصطلح الاغنية الشعبية المنتشر عندنا بلا تحديد يعبر عن كل أشكال وأنواع الممارسة والإبداع الموسيقى

والغنائى الذى يحمل الطابع الشعبى ، أو الذى يعبر عن البيئة الشعبية والمنتشر بين الطبقات الشعبية أو تلك الأغنيات التى يؤديها فنانون محترفون نابعون من الوسط الشعبى ، ويمثل الفن مصدر رزق لهم ، كما يطلق أيضاً على الأغانى التى ألفها ولحنها وغناها فنانون محترفون ليسوا من الطبقة الشعبية ولا ينتمون إليها ولكنها أغان ذات نص يحمل الطابع الشعبى أو تدور حول موضوع يتصف بالشعبية ، كما أنها لحنت بشكل يحمل الخصائص التى تتسم بها الأغنية الشعبية من البساطة والسلاسة، وذلك مثل الاغانى التى تخرجها يوميا وسائل الإعلام والنشر المختلفة(١).

والأغنية الشعبية تقوم بوظيفة صمام الأمن للناس فى أوقات الضيق ، وهى وسيلة من وسائل المرح والبهجة التى تعينهم على إنجاز عمل صعب ويجدون فيها متنفسا لعواطفهم ومشاعرهم(٢).وهى فى الوقت نفسه يوجد نوع من الأغنية الشعبية التى يؤلفها ويلحنها الشعب نفسه ولا ترتبط بمبدع معين ، كما تتناقلها الذاكرة الشعبية من جيل لجيل شفهيا دون حاجة لتدوين أو تسجيل ، وهم يغنونها غالباً بشكل جماعى أو انفرادى .

ويذهب البعض من الباحثين أن صفة الشعبية تسقط عن الأغنية طالما نسبت إلى مؤلف معروف وأن الجهل بالمؤلف

عامل أساسى وجوهرى فى الأغنية الشعبية ، بينما يرى آخرون أن ذلك غير ضرورى وإنما هو أمر عارض حدث نتيجة لظروف خاصة ومراحل معينة مرت بها المجتمعات الإنسانية خلال تطورها الطويل(٣).

ولا يقل الشعر الشعبى والغناء الشعبى لهذا الشعر أهمية عن السيرة أو الحكاية الشعبية ، وإذا كان الموروث الشعبى هو مستودع حكمة الشعوب ورؤاها وفلسفتها الشعبية فإنه أيضا يتسم بالتلقائية والبساطة كما أنه يحمل أفكارا ثابتة حقا تمثل المنحى الثقافى للجماعة وتخدم الأغراض والغايات الاجتماعية و الثقافية للمجتمع(٤).

فإن هذا القول ينسحب أيضاً على الشعر الشعبى الذى يحمل ، القراءة الشعبية للتاريخ والوقائع ولكن فى إطار فنى يختلف عن سائر فنون الأدب الشعبى، كما يمكن القول إن ما يميز الشعر الشعبى عدم الحاجة إلى راو محترف لأن كل واحد من ابناء الشعب يمكن أن يتحول إلى واحد من رواة هذا الشعر الشعبى على نحو أو أخر وبالشكل الذى يكفل الانتشار السريع.

ولقد أضحى لزماً علينا كأفراد وجماعات وشعب فى هذه الفترة من تاريخنا أن نشبع ذلك النزوع إلى معرفة ذاتيتنا الجامعة وهو بالنسبة لنا بعد أن رفعت الحواجز وحطمت الأغلال ، فرض عين لا فرض كفاية ؛ فرض عين لأنه

ضرورة لكل إنسان يعى انسانيته ولأنه الوسيلة الكبرى لتحقيق الشخصية الفردية والعامة معا[٥] ، فإن هذا الأدب تتدرج فيه أحلام الشعب المصرى ، وأمثاله وآماله كما تتدرج فيه تجاربه المريرة فى النزوع إلى التحرر وآلامه الحادة فى مغالبة الظلم والقهر والسلطة والاستعباد ، فهذا الأدب واللون الشعبى يصور المجتمع من السفوح أو من أسفل الكيان الاجتماعى وينتجه فى صورة من الملاحم والأغانى والأمثال والوصايا وخلاصة معارف عملية تتلقاها أجيال عن أجيال[٦].وفى كثير من الأحيان تقرأ فى الشعر الشعبى تاريخا للعصر الذى قيل فيه وللبيئة التي ولد بها بمعنى أنه يصور الحياة السياسية ويعكس الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للجماعة .

فالأغنية الشعبية ليست درجة ضحلة من التأليف الأدبى ، بل هى تعبير فنى من الطراز الأول له وسائله وله نظامه وله قواعده التى تحكمه ، وهى لها قيمة فنية تميل إليه النفس لأن قوامه الأصالة والصدق الشعبى وأصالته نابعة من بساطته وتلقائيته التى تستهوى الوسط الشعبى وتعبر عنه وعن آماله وأفكاره النابعة من أخيلة العامة وعباراتهم الدالة على حياة الشعب ، كما تدل اتجاهاته الخاصة وأخيلتهم على تلك المعانى المملوءة بالثقافة .

والأغنية الشعبية فى مصر كما هى الحال فى كثير من الدول تدل على صور النفوس وأحوال عامة الناس ومجتمعاتهم فى أسلوب ساذج جميل أكثر من أدب الخاصة ، وذلك لأن هذه المواويل والأغانى تغنى فى أسلوب تهكمى مملوء بالنكات الطريفة والفكاهات الحلوة والنقد البرئ والدقيق وحسن البادرة ، وكل هذه الصفات تكشف عن طبيعة العقل المصرى .

ونظراً لأن هذه الأغانى الشعبية ما هى إلا صورة لنفسية العامة ، تجد هناك تشابها بين المواويل والأغانى والقصص فى جميع أنحاء مصر ، بل هناك تشابه بينها وبين الأغانى والقصص الشعبية فى بلاد العراق والشام ، ذلك لأنه قد تنازع مصر عدة مدنيات وكان لحضارة العرب ومدنيات قدماء المصريين أبلغ الأثر .



إلا أن درجات ذلك الأثر تختلف من شرق الدلتا إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، فعلى الرغم من وجود شيء من التشابه الجغرافى فى كثير من أجزاء مصر إلا أن هناك من الاختلافات المحلية فى طبيعة البلاد ومواصلاتها ما يجعل أثر قدماء المصريين مازال ظاهرا فى جنوب الوجه القبلى بشكل أوضح ، مما هو فى شمال مصر الشرقى حيث يظهر الأثر

العربى بشكل محسوس ، فطبيعة الخلق المصرى المتوارث تتغير تبعا لاختلاف المناخ والمنظر الطبيعى العام ، ويتبع ذلك اختلافات فى الأغانى الشعبية فى شرق الدلتا وجنوبها وفى الصعيد[٧].

لما كان المصرى (كما يصفه الناس) روحانى بطبعه ، ولما كان الدين هو نور الحياة الذى يستضئ به من اصطفاه الله وهداه ، ولما كان الدين هو الأمل الذى يحيا به الإنسان فى الحياة ويدخره لنفسه بعد الممات ، ومن تمسك به عاش سعيدا ، لما كان كل هذا فقد جاءت الأغانى والمواويل الدينية لتعبر عن كل هذه المعانى من القلب لا من الفم ، ومن الإيمان لا من اللسان فتناولت الأغانى الدينية كل ما يتعلق بالقرآن والأحاديث ،ولهذه مناسبات مخصوصة للتغنى بها كالموالد أو حلقات الذكر

كما لم تزدهر الأغانى والمواويل الدينية فى الشرقية وسائر أقاليم مصر إلا بين أحضان مشايخ الطرق وغيرهم من المتحمسين للدين ، وهى تتناول كثيرا من آيات القرآن وقصصه والآداب الإسلامية وتمزجها بصور حسية ، أى أنه يمكن القول بأنها محاولات للتعبير عن الروحيات بأمثلة مادية تنشد أو تتلى بصورة غنائية ، فالكثير منها يدل على أن هؤلاء المنشدين والمشايخ على علم بشىء من أصول الموسيقى وفنونها الأولى ونغماتها التى تسرى فى الإنسان سرياناً يتحول

إلى حركات منتظمة تتمايل على رقص توقيعى ، ولسوف نجد أن الدولة الأيوبية كانت أرضا خصبة لازدهار مثل هذا الأدب الشعبى ، وتمثل ذلك فى اهتمام الأيوبيين بهذا النمط الشعبى فى اعتماد صلاح الدين عليه فى إنكاء حماسة الجنود وتدرج الأمر مع انتشار الطرق الصوفية فى العصر المملوكى حتى وصل عددهم إلى ست وثلاثين فرقة(٨).

ومن البساطة بمكان على الفاحص أن يحس سهولة وبساطة صور هذا الأدب الشعبى الذى يتغنى به بأن الله فى السماء وحوله الملائكة وان الله هو الأعلم بحال عباده ، فمثلاً يقول الراوي:

طبيب وضع كارت على باب العيادة مكتوب
الكشف مجانا ياوله(ياولد) وتصرف الدوا(الدواء) المطلوب
فيه من صرفلو(صرف له) حجن(حقن) وفيه من صرفلو حبوب
وما بيهمناش(لايهمك) العيا(المرض) مادام رب العباد موجود
وتسأل العبد ليه(لماذا) لما بيحصلك(يحصل لك) ضيج(ضيق)
أسأل ربنا المعبود دواه يداوى الوالد مع المولود (٩) .

فهو هنا يقصد أن الطبيب هو رسولﷺ الله الذي جاء برسالة الإسلام ليتعاطى منها مريض الخوف من عقاب الله فإذا أخذ منها فلا يهمه مرض لأن الله الشافي المعافي موجود في كل الوجود ولكل داء دواء كما أن هذا الإنسان لايسأل أحداً إلا الله فالسؤال لغير الله مذلة.

وفى الشرقية نجد الفنانين الشعبيين قد تناولوا جوانب الحياة فى فنهم الشعبى ، فنجد الدينى منه والاجتماعى والغزل والسياسى والوصف والهجاء ، وفى كل هذه الموضوعات نجد الحكمة مبثوثة والحادثة مسرودة والمعنى الغريب مقتنصا فى براعة وحذق والصياغة بعد هذا لا هى بالمكروهة ولا بالمستهجنة بل جمال الحس وروعة الألوان بين سطورها .

ولعل المغالاة فى حب الرسول ﷺ كان وراء هذا الانتاج الثري من الأدب الشعبى الدينى الذى يدور فى فلك الرسول ﷺ ، فمثلاً يقول الراوى الشعبى فى الشرقية :

يانبى ... يانبى ... يانبى

يابدر نوره ظهر وعم فى الثقلين

الله اصطفاك الصفا منه الصفا يازين

أنا دخيلك فى يوم الحشر وفىّ الديـــن

سبح الحصى للمصطفى بأمريـــــن

امر الشفاعة والثانى يوفى الديـــــن

اروح لمين واشتكى وانا ضنين الزين

وسيطرة فكرة زيارة الرسول ﷺ على جوارح الوجدان الشعبى فى الشرقية فترجم مشاعره فى قوله :

سألونى عن حب النبى أنا قلت نور عينى

قالوا بتحب حضرة النبى أنا قلت نور عينى

قالوا عندك غرام أنا قلت وما لي(يملأ) عـــينى

قالوا تروح للنبى أنا قلت دا(هذا) منا(منى) عيـــنى

شيعت(أرسلت) اقول يانبى مجروح داويـــــنى

قالى يامحبى تعالى مع محبيــــــــنى

شيعت أقول له بحبك ياضيا عيــــنى

شيع وقال لى على عرفات وخد أيــــدى

*وتتصل أمنية الشرقاوى فى زيارة ضريح الرسول ﷺ فى قوله :

ياعم مالك ومالى ....

ابعد عنى سيبنى(اتركني) فى حالى

أحمد طبيب المبالـــــى(المبتلى)

وانا دوايا(دوائي) مع محمـــــد

ياسلام ياسلام ياسلام

على المقام والحمام بباب السلام

لما دعانى نوره بـــــــان(ظهر)

الروضة وجمالها وزينها وساكنها زاينها حبيبى

ياسلام على نـــوره

سيدنا النبى محلى(ماأحلى) نوره

زي القمر وقت ظهـــوره

وياللى معانا روح زوره

واجلس وصلى على محمد

ياللى تحبه صلى عليه خلى نجاتك بين إيديه

ولما كان الحج إلى بيت الله الحرام والطواف به يعتبر من أعز الأمنيات على قلب الإنسان المصرى ، فنجد أن الأغانى الشعبية المرتبطة بهذه المناسبة بشكلها وتركيبها الموسيقى تتشابه تماما وأغانى الأفراح الحرة وأغانى العمل الفردية[١١]. وأدلى الفنان الشرقاوى الشعبى بدلوه فى مثل هذه المناسبة العزيزة منوهاً إلى نوعين من الحجاج ؛ النوع الأول هو من يذهب لينال لقب الحاج ، أما الآخر فهو من يذهب لينال مغفرة الله ورحمته ، فنجد الفنان الشعبى فى الشرقية بلور رؤيته لهذه العبادة فى سياق فنى سلس وبسيط لينشد قائلا:

من حبى فيك يانبى ألبى(قلبي) إنشغل بهواك
هات الطبيب بالعجل(بسرعة) يكشف على ما أسايه(ما أقاسيه)
دا كل دئه(دقة) يابا بتعمل رجوجة(اهتزاز) جـــــواه
مشغول بحب النبى هات الطبيب يابابايـــه
أنا ها أموت فى الهوا من غير دوا يابابايـــه
مش يمكن ارتاح وألبى(قلبي) مشغول فى هـــواه
أمانه ياعينى ما تكويش ألبى(قلبي) بالمـــــرة
خلينى ازور النبى فى العمر لو مـــــرة
غرام جمال النبى فى الألب(القلب) ناره حمــــرة
ملك(امتلك) فؤادى وخلا(جعل) النفس مش حـــــرة
زوار حبيبى النبى ياعين رايحين بكـــرة
إمته(متى) الزمان ينعدل وازوره بأه(بقه) بالمـــــرة
سفينة العلم دايــرة فى سبع ابحـــــار(بحار)
فيه من طلع لو(طلع له) جواهروفيه من طلع لو(طلع له) محار
وفيه من راح(ذهب) يزور النبى ياريته لا راح ولا زار
دا راح يشترى لو(له) اسم ياناس يكتب الحج على باب الدار
وفيه من راح يزور النبى ومندرش(مقدرش_لم يستطع) جالوا النبى لحد(إلى) الدار

واللى معاه ربنا عمره ما ينضام ولا تمس
جسمو(جسمه) نار[١٢].

*وقد رأي أن حب رسول الله يفرض عليه التزامات أخلاقية لخصها في قوله:

اللي يحب النبي لازم يكون حساس

واللي الإله يحبو(يحبه) لازم تحبو(تحبه) الناس

ومطرح ما يمشي يلئه(يلقه_يجد) ايديه تنباس

والحب في الألب(القلب) والمال ماهوش
مأياس(مقياس)

ماهو اللي يحب النبي لازم يكون حساس

وما أكثر نصيب الغزل فى الفن الشعبى ، فالعلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة أزلية أبدية تحدثت عنها الديانات وتناولتها البشرية بالتعبير والدرس وبالتالى كان لا بد أن يكون للفنان الشعبى مكان ودور فى هذا المستودع



الخصب وكان للشرقية سهم فى هذا المجال بما انتجته من أدب شعبى له شىء من جمال الحس وتجلت فيه روعة الألوان بين سطوره يدلنا على ذلك بعض الصور ذات الألوان الزاهية فى هذه السطور :

يابو كعب رمان ولك عود الرخام ملفوف

تمشى تهز الفلك تعجب وتجولى(تقول لي) شــوف

شغلت عقلى وخليتنى عليك ملهــوف

فوتنى صنعتى واعدت اراعى لك(انظر لك)

ياللى المخبى على شانك صبح مكشوف[١٣].

ويتحدث آخر عن قوة العلاقة التي تربطه بحبيبه ويصفها بألوانه الزاهية التي استلهمها من بيئته قائلاً:

ياحلو ياللي خدودك حمر عيونك سمر برامين

جوم(قم) افتح الباب وشوف بره مين(من بالخارج)

اتنين(اثنين) بيغزلوا حرير واتنين برامين

واتنين بيجيبوا الكتاب(المصحف) أحلف عليه يمين

ماحد جبلك(قبلك) ولابعدك دخل جلبي(قلبي) إلا انته واتمكن فيه تمكين

*وتناول الفنان الشعبى فى الشرقية هذه العلاقة من وجهة نظره حيث عبر عنها بشتى تفاصيلها وبدون حياء ، وتمثل ذلك فى قوله:

جلبى(قلبي) كواه الهوى يامين يداوينى

واللى معاه الدوا(الدواء) هو اللى كاوينى

لما جمعنا الهوى وعيونه فى عيونى

كتبنا شرط الهوا وحلفت لأصونه

جلولى(قولوا لي) ياأهل النزر(النظر) اشوف جبيبى فين

هو(هل) هواتا اتنزر(اتنظر_حُسد) ولا صابتنا(أصابتنا) عين[١٤].

*ويقول آخر واصفا الفوارق التي تحول بين المحب والحبيب بقوله:

باح(صرح) الحبيب للحبيب بالهوى العزري(العذري)

والبنت جالت(قالت) لحبيبها انته(أنت) حبيب عمري

جال(قال) لها لا يا حبيبتي اجبلي(اقبلي)

عزري(اعتذاري)

إنتي هناك في السما وأنا ع الأرض مش طايلك

والشرقاوى في الموال الأول يقصد شدة اللوعة التى يراها المحبوب من محبوبه على الرغم من أنه يكتب شروطا يحلف فيها على الحفاظ عليه وصيانته أما في الثاني فهو يصف لنا لوعته لأنه سيفارق حبيبته مرغماًلأنه لايملك أن يصل إليها ولو بكل ما يملكه لبعد المنال عنها ويتحدث كذلك عن الأشواق وما يكنه للحبيب من مشاعر وأحاسيس قائلاً:

مشتاج(مشتاق)لكم جوي (بشدة)وايش حيلة المشتاج

وحبكم جدر(قدر) مافي الأشجارمن الأرواج(الأوراق)

لوكانت الأرض حب(حبوب الغلال) والسما

أرواج(أوراق)

والإنس و الجن كلهم كتبه

لم يكتبوا ربع مابي من الأشواج(الأشواق)

*والمحب كذلك استطاع أن يصف مدي ما يعانيه للتمسك بحبيبته حتي أنه يصرح أنه مستعد أن يكون رمزا للعقوق في سبيل حبه والدفاع عنه:

أنا بحبك ومهما الناس يلوموني

وافضل أحبك كمان ولو أهلي عادوني

ولاأخدش غيرك ولو بالمال يتجلوني(يقومون بوزني)

واعصي أبويا العزيز إن كان يفرجنا(يفرقنا)

ويكون موافج(موافق) لناس غيرك حيخدوني(يأخذونني)

*ويصف لحظة فراقه لحبيبته وتسليمه بمشيئة الله وقدره بقوله:

يارب ساعة الفراء(الفراق) فيها الأسى كلو(كله)

وأما ساعة اللؤا(القاء) بالعمر دا كلو(كله)

يارب راح الحبيب اللي يسوى(يساوي) الملك دا كلو(كله)

لكن دي(هذه) حكمتك ومشيئتك في الكون

العبد حيروح لمين ويشتكي زلو(ذله)

*ولاينسى المحب الشرقاوي أن يحذر من لوعة هذا الحب والوقوع في شباكه السحريةبقوله:

أوعى يا خويا من اللي شكلها فتان

بتبئه(تصبح) عيونها بتسحر والفؤاد حيران

وكانت الأحداث السياسية والتحولات الاقتصادية فى مصر تلقى بظلالها على الفنان الشعبى فى الشرقية ، فكان يبلورها ويعيد هيكلتها تبعا لإدراكه وإحساسه التلقائى، ونلاحظ ذلك على الفنان الشعبى وما أنتجه فى فترة التحول الاشتراكى التى مرت بها مصر فى إحدى فترات تاريخها الحديث فى قوله :

طبيب وضع كارث على باب العيادة مكتوب
الكشف مجانى يابابا وبيعطى الدوا المطلوب
والعيادة مفتوحة للفئير(للفقير) والغنى وكله عليها محسوب
طبيب المبالى(البلاء) حضر يكشف على المنكــوب
فيه من نصرفلو(صرف له) حئن(حقن) وفيه من انصرفلوا(صرف له) حبوب
والساحة فيها اشتراكية
فيها الوزير والملك واللى ينضرب بالطــوب
واللى يلوم ع المبالى يستاهل الضرب بالمركوب(الحذاء)[١٥].

ومما يؤكد أن الأدب الشعبى لا يزال أحد أهم الوسائل للتعرف على الحياة الفكرية لأى شعب من الشعوب وقد ظهرت روح الكرم الشرقاوى فى الأدب الشعبى بالشرقية بصورة قوية لم تخف عن كثير ممن كتبوا عن الزقازيق مثل **Lane** فى كتابه:

جالم(قالوا) منين القبايل　　　**قلت م الزئازيئ(الزقازيق)**
جالم(قالوا) حمولك تقيله　　　**قلت فى الزئازيئ(الزقازيق)**

يارب خلى الحبايب
كترة فى الزنازيئ(الزقازيق).
ظهر معى جرح جَوه(داخل)
الجلب(القلب) ودهانـــى(أصابني)
ندرن(نذراً) علىّ ياناس
إذا طابت جروحاتى(آلامي)
لعمل(لأعمل) وليمة وأجول(أقول)
للوالدة هاتـــــى
وادبح دبايـــح
واكفى مصر والزنازيئ(الزقازيق) [١٦].

ولا تزال الشرقية تشتهر بين العامة بكرمها وتفاخر بهذا الكرم الذى صاحب الشرقاوى فى حياته منذ نعومة أظافره وتناوله الموال الشرقاوى بقوله :

اللى صفاتو(صفاته) الكرم طول عمرو(عمره) لا ينضام
يعيش حياتو محترم بس الكرم بنـــزام(بنظام)
حديس(حديث) وآلو(قاله) النبى أن الكريم لا يضـــام
بيت الكرم محترم لو كان دور واحـــد
طول عمرو(عمره) مفتوح لو خشو(دخله) فى اليوم
ميتين(مئتان) واحد
بيت البخيل أكام دور ما بيسعش(لايتسع) ولا واحـــــد
واسمع حكاية عجب بتحكى عن أخيـــن
كانوا شئيئين(شقيقين) لكين(لكن) الطبع مش واحـــــد
عطية كان اسعد الأيام لو جالو(جاء له) ضيـــف

بيتو مفتوح للغلابة فى الشتا والصيـــف

وكان عطية عطيه فى الشدة ساعة الحيف

ما كنش ياكل ويشبع وبيته(يبقى) غيرو(غيره) جعان

وكان بالكرم والشهامة في البلاد معروف

لكين(لكن) شومان أعد(قعد) جوه(بالداخل) بيتو(بيته) ولا ضيف يروح حداه

من بخلو(بخله) يحرم فى نفسو(نفسه) وغولت لعنقو(عنقه) يداه

وان شاف ضيف عند أخوه يروح ياكل وياه(معه).

وإذا كان الكرم هو نهج الشرقية وصفتها المميزة لها فقد كان البخل أيضاً عدو الشرقاوى الكريم مما حدا بالفنان الشعبى بالشرقية أن ينبذ صفة البخل قائلاً:

يا آكلين اللحوم ادوا(اعطوا) الفئير(الفقير) حتــــة

يامكومين الهدوم خافوا من العتــــه

خلو نزركوا(نظركم) مع الغلبان ستة على ستة

ولما كان الكرم يفضى ببعض أبناء الشرقية إلى هوة الفقر أحياناً فعمل الفنان الشعبى على محاربة مثل هذا السلوك ووجه ندائه إلى الشرقاويين بأن للكرم أصول وقواعد موضحها بقوله:

بأول(بأقول) يامسرفين اقنعوا ولا تصرفوش بجنون

أما الكرم له أصول عشان يكون مضمون

واعمل للدنيا والآخرة وكل شيء بأنـــون(قانون)

والآية معناها بيئول(بيقول) المبزر(المبذر) أخو الشيطـــان

وربنا لو(له) حكمه واللى فى علمو(علمه) يكـــــــون

*ودعا الراوي الشرقاوى إلى التمسك بالوسطية في الكرم عدم الإسراف قائلاً :

ولما كرموا(كرمه) زاد وفاض عن حـــدو(حدوده)

واللى يزيد عن حدو(حدوده) ينألب(ينقلب) لضـــدو(لضده)

خير الأمور الوسط وكل شيء بيبألو(يبقى له) حدود

والبدر ينأص(ينقص) مدام يوصل كمال مجـــــدو(مجده) (١٧)

وبرغم الكرم الشرقاوى الشهير ، فقد كان لبعض القبائل العربية التى مرت ببلبيس وسكن بعضها هذه المدينة راى آخر تركوه لنا من خلاله بعض الأمثلة التى مازال الناس يذكرونها لابناء بلبيس فى المناسبات المختلفة ، ومنها :" **فتنا على بلبيس ياما جرى لينا تبيع العيش بالميزان والمش بالفنجان** ".وقد رأى بعض الناس أن هذا المثل دليل على بخل اهل بلبيس لأنهم لم يعطوا بنى هلال أثناء مرورهم أو مكوثهم ببلبيس خبزاً بدون

ميزان أى بدون تحديد الكمية وتحديد المبلغ ، بينما فسرها ابناء بلبيس بقولهم ان الهلالية جاءت فى وقت حروب ولم تكن هناك أوقات سلام حيث تكثر المواد الغذائية وكان لا بد من ان تحدد الكميات حتى لا تنفذ هذه المواد .

وعلل البعض الآخر من أهل بلبيس أن مدينتهم كانت متحضرة لكونها كانت عاصمة الشرقية وسارت على طرق التموين المنظم فوضعت التسعيرة للمواد الغذائية فسعرت العيش والمش ولم تترك هذه المواد تباع جزافا[١٨].ولسوف نجد أن الشرقاوى قد جسد فكرة الكرم اللصيقة به فى أمثاله الشعبية بطريقة عفويه أشارت إلى ترفعه عن مجرد التفكير فى مطالبة الذين أكرمهم من ذى قبل وحدث خلاف بينه وبينهم أن يطالبهم بأسترداد ما أكرمهم به لينأى بنفسه عن ذلك قائلا " **فى حتتنا ما نلحس**(نسترجع) **تفتنا**(البصق_الهدية) " وهو هنا يقصد أن التقاليد والعرف فى أرضه التى نبت منها تمنعه عن المطالبة بمقابل لكرمة وأنه لا يلتفت لمن تطاول عليه بعد أن أكرمه ويعلن له أن كرمه – علا قدره أو انخفض – ما هو إلا بمثابة " تفة" بصقها على الأرض ولا يلتفت إليها ثانية مع اللئام الذين تمردوا عليه .

ولأن لكل مجتمع عادات وتقاليد وقيم متوارثة وما تحويه من مقومات أخلاقية وروحية وفلسفية والأدب الشعبى ميدانه دائما

المجتمع ، وبالتالى فهو يرتبط بالحياة الأخلاقية والروحية للناس لأنه يتم داخل المجتمع ، وبذلك يكون قادراً على أداء وظيفته فى هذا المجتمع فيقوم بالتعبير عن المدح والسخرية والتفجع والضجر والتبرم والشكوى فيعبر الراوي الشرقاوى عن شكوى الفلاح من الزمن قائلاً[١٩].

أنا اللى خانى(خانني) الزمن ولا عدش(لم يعد) حاجة ليـــه(لي)

حكم عليه(علي) الزمن باع واشترى فيــــــــه(في)

اروح لمين واشتكى لو الدمع ف عنيـــــه(عيني)

يمكن فى لحزة(لحظة) رضا يرضى النبى عليـــــه(علي)

وهنا يقصد شكوى الزمن الذى باع واشترى فيه وأصبح هو هنا فى غير حكم نفسه وليس له شفاعة من ذلك سوى رضا الرسول ﷺ .وأول ما يتبادر إلى الذهن هو أن الأغاني والمواويل التي يتغنى بها في كل مناسبة اجتماعية لابد أنها تخدم مناسبتها الاجتماعية ومعنى هذا أن الأغنية والموال الاجتماعي الذي يقال في الافراح إنما يثير السعادة والفرح لكن إذا أمعنا النظر وعشنا جوهر كل من الأغنية والموال الشعبي لأدركنا أنه بعيد عن مناسبته المباشرة حيث يكشف عن نظام المجتمع الواقعي الذي يعيشه الشعب . ومن هنا نجد أن الأغنية

والموال اللذان ينبعان من صميم الشعب ويتوارثه الشعب ثم يخضع للتطور والتغيير إنما يساهم في كشف صورة بناء المجتمع من خلال المفاهيم التي يعبر عنها .

ومن هنا يشكل الموروث الشعبى المرتبط بالحب والزواج والأفراح تراثا عظيما وكنزاً فنياً من الأغانى والمواويل التى يبدو من تركيب بعضها أنها شديدة القدم وبعضها الآخر يبدو عليه بعض الحداثة وهذا النوع يشكل من ناحية الكم فى الشرقية وباقي أنحاء مصر عموما القدر الأعظم والأغزر بين جميع أنواع الفنون الفلكلورية المصرية، ومن ثم فنحن نجد نوعيات مختلفة من النتاج الفولكلورى قد يتشابه أو يختلف قليلا فى الأسلوب على حين يحمل النص وجه الاختلاف الأكبر الذى يعبر عن مواضيع وخطوات تلك الطقوس بداية بأول تفكير فى الزواج حتى الصباح التالى لليلة الدخلة.

وبرغم تشابهها فى الشكل والإطار العام فى كل أنحاء مصر إلا أنها قد تختلف فى بعض الجزيئات بسبب اللهجة أو العادات أو التقاليد او الطبيعة والظروف الخاصة بكل منطقة[٢٠].وفى الشرقية أكد الفنان الشعبى على ضرورة البحث عن النسب الطيب قبل اى شىء آخر مستلهما المثل الشعبى القائل : " **حاسب قبل ما تناسب** " فى قوله:

نسب الأمارة(الأصل النبيل) شاطارة(شطارة) حلو ويريح

ما يهمش المال ولا الجمال أصل الكمال بيريح
سيبك من المعيوب لو كان لا بس ومتريـــــح(متعطر)
خد الأصيلة لو كانت فئيرة(فقيرة) بلا مـــــال
تعيش معاك ع الزمن ع الحلوة والمـــرة
بنت الأصيل تنفعك لو شح الزمن أو مال
ع الملح بتعيش ولا تشكيش(لاتشكو) لأهلها مـــــرة
واعشأ(اعشق) زوا(ذوا) الفضل لو تصبح فئيرة(فقيرة) بلامـــال
وسيبك(اترك) من اللى يسيب راجل ويجرى ورا(وراء) مرة(أمرأة)
الحر لو افتئر(افتقر) يسوا(يساوي) خزاين مـــــال
ياعم عيش راجل يوم ولا تعيش الحياة مره
اسمع كلام بلدى أغلى من الدهب والمــــال
ياللى غاوى النسب شوف الحسب والأصـــل
بنت الأصيل تعجبك باين عليها الأصـــــل
احنا سعنا مسل(مثال) من راجل عجوز ولو فى الحئيئة(الحقيقة) أصل
فئيرة(فقيرة) حداها(عندها) أصل مع
الخـــلأ(الخلق_الناس) حتريـــح[٢١].

وبالتالي فإذا خطب الشاب فتاة فلا بد كما يقول الموال ان يبحث عن صاحبة الأصل التي تستر عيوبه وتعيش معه في أحلك الظروف فلا يهم المال عند الخطوبة لأن الاساس ليس في المال بل في الأصل الطيب ولذا فالموال في الشرقية يشيد بالسمعة الطيبة للفتاة التي تحافظ على سمعتها الطيبة أما إذا أهملت شرفها فلاتستحق من الناس سوى الدوس عليها بالأقدام . وفي هذا المعنى يقول الراوي:

سيرة الأصيله بتبجى(بتبقى) مسك شموها
ريحها متعطرة والكل شموها
تشبه لوردة فوج(فوق) الأغصان شموها
يا صاحب العجل(العقل) حكم دائماً عجلك(عقلك)
وردة كبرتها لما خدت عجلك(عقلك)
دوسها برجلك بدام(طالما) الاندال شموها

ولا نعدم أغانى ومواويل الأفراح والعرس بالشرقية حيث تأتى ساعة الدخلة وفيها يطلب الفنان الشعبى من العروس أن تشرف أهلها وأن ترفع رأسهم وتتحدث عن طهارتها وأدبها وحسن تربيتها[٢٢].بعد إنتهاء حفل العرس الساهر ،حيث تبدأ زفة العروسين معاً من مكان الحفل إلى منزل الزوجية لتبدأ بذلك _الدخلة_حيث يختلي العروسان ،بينما قد يمتد الحفل مع الساهرين بين البهجة والفرحة في حين تركوا العريس لشأنه مع

العروس وكان إلي وقت قريب ينتظر بعض منأهل العريس والعروس خارج منزل الزوجية إنتظاراً حتى تخرج إحدي السيدات تحمل شاشة بيضاء ملوثة بدم البكارة ليعلو هتاف وإبتهاج أهل العروس خاصة ووسط الزغاريد يعلن الأهل إبتهاجهم بأبنتهم التي رفعت رأسهم بعذريتها ونقائها وهوما كان يسمى بـــ(الفلاح).

وكان من المعتاد أن يحمل أحد الشباب تلك (المحرمة)علي سن بندقية أو عصى كالعلم ويطوفون بها القرية مصفقين مهللين بينما تظل نساء العائلة أمام منزل الزوجية يرددن الأغنيات الخاصة بتلك المناسبة والتي تحمل معان تدور حول التمسك بالتقاليد والشرف والقيم التي تدعو إلى النقاء والطهارة والعفة .وكذلك في الصباح عندما يعودون إلي مقر العروسين بالصباحية يرددن الأغنيات الشعبية مثل:

شوفوا دم البنت الفلاحة **أحمر وزي التفاحة**

يامـحـــــــلا دم البنت **بيطولـــوا الرقبات**

يا بلحـــــــة ومأمعه **شرفتي خواتك الأربعة**

ياعروسة دمك رشاش **يعروسة غرقتي الشاش**

يابحر روق نغسل الشاشاتـــى **واحنا إتنصفنا ياعدوة هاتي**

يابحر روق نغسل المناديلـــــى **واحنا إتنصفنا ياعدوة ميلـــى**

وفى صباح اليوم التالى للدخلة (الصباحية) تذهب أم العروس والسيدات والفتيات من عائلتها إلى ابنتهن العروس محملات بالهدايا وأواني إفطار العروسين وطعام يكفيهم عدة أيام تسبقهن الزغاريد والأغنيات وهناك تستقبلهن العروس في ثوب الصباحية والعريس بالجلباب الأبيض وتقوم أم العروس بتوزيع الحلوى والشربات علي الموجودات كما تتلقى (النقطة)كل حسب مقدرتهويرجعن بمحرمة (منديل أوشاش) بكارة العروس مرددات الأغاني المأثورة ومنها:

أم العريس تقول ربى عطانى

هاتولي البنت تنور وسط داري

يم العريس قومي اطلعي ولاقيني

أم العريس تقول ربي عطاني

حماتك تقول نهار الهنا اللي جيتي

دا الفرح فرحي والبيوت بيوتي

واحنا فرحنا يا عدوة موتي

دى مشيتها تنور وسط دارى

دى قعدتها تخلف لى الصبيان

وبذلك نجد ان الفنان الشعبى فى الشرقية قد ساهم فى كل خطوة طبقا للطقوس المتبعة للفرح وغيره من المناسبات ، مثل

ختان الثمرة التى نتجت عن الزواج حيث القى الفنان الشعبى فى الشرقية بسهمه فى مناسبة الختان التى تميز المصرى منذ فجر تاريخه عن باقى شعوب العالم وما يصاحب هذه المناسبة من أغان تتمنى للمولود الصحة وطول العمر له ولوالديه وللمزين ايضاً (٢٣).

دخل المزيــن بعدته وأمواسه حلف المزين ما ياخد إلا شاله

شاله الرهيف يلبسه لأخواته

دخل المزين بعدته الذهبية حلف المزين ما ياخد إلا مية

وميتين تلاته لحلقة الشوشية

دخل المزيــن بعدته وأمواسه حلف المزين ما ياخد إلا ماسه

وميتين جنيه على حليق راسه دخل المزيــن بعدته وأمواسه

ميت أبو علي – الشرقية ١٩٧٢

ومن الملاحظ أن هذه النوعيات من الأغاني والمأثورات الخاصة بهذه المناسبة قد بدأت في الاندثار ولم تعد تتردد سوى بين الأوساط الشعبية جداً بينما اختفت تماماً من المدن والحضر خاصة بعد أن أصبحت تجرى عملية الختان في المستشفى بعد الولادة مباشرة في أغلب الأحيان ويتم ذلك دون احتفال أو أغنيات .والتي كان يرددها كبار السن مثل:

داري يا مزين داري   سمعني عياط الغالي يعيني

ودي أمه قعدة مجلية   لابسه الحلق أبو ميه

ودابوه شايل الصينية   بيلم نقوط الغالي يعيني

ودي أخته قعده مجلية   لابسه الخاتم أبو ميه

وداخوه شايل الصينية   بيلم نقوط الغالي يعيني

ولسوف يجد الناظر في حقل المواويل الثري بالشرقية العديد من المعاني التي عبر بها الناس عن أنفسهم ومعتقداتهم الشعبية والدينية وكان من أبرزها قيمة العدل في المجتمع ؛ فالعدل صفة من صفات الله . فالله عادل ولا يظلم أحد ، وعدل الله يستلزم أن تكون أفعاله تهدف إلى الخير ويستلزم نفي إرادة الله لفعل البشر ومن هنا كانت هذه الصفة من أهم موروثات المجتمع ومن ثم فهى سائدة في مواويله وأغانيه المعبرة عن أفكار الطبقات الشعبية من هذا الشعب فمثلاً يقول الراوي :

شوف غلطة الأب لما يميل مع واحد

يحب واحد من الأولاد ويسيب واحد

ويصرف المال على واحد ويسيب واحد

حيحوجو(يحقه) ربو(ربه) للي مابيحبوش

والرب عادل ما بيزلمش(لايظلم) ولا واحد

حيث أنه يرى صورة الأب الظالم لأولاده بعدم تطبيق العدل وإجحافهفي تمييز الابناء على الآخر ولكن أين يذهب من العادل؟

ومن الملاحظ أن الولد قد مثل قيمة هامة في مجتمع الشرقية لما يمثله من امتداد للفرد وإحياء وتعضيد لشجرة عائلته وامتداد نسله والذي يعد قيمة لها وزنها في المجتمع الذي يحتفي بالطفل وتترقب الأسرة بعد الزفاف في قلق ولهفة ظهور علامات الحمل وتتابع الزوجة في توتر وتوجس ما يشير على استعداد فطري لديها للإنجاب . حينئذٍ، تطمئن على مستقبلها مع زوجها ، وتواصل الحياة معه وإنجاب الأطفال عامة ، والذكور خاصة أمر ذو قيمة أساسية في حياة الريفيين عامة والشرقاويين خاصة . وهنا يؤكد عليها الموروث الشعبي بقوله:

ياميت ندامة علي اللي عاش بطول العمر ما خلف

شبه الحمام في البنان عاش ولا ولف

وأنا في بطني جرح لكن بخلاف

وطبيب المبالي رش الدوا وإيجا(وجاء) بخلاف

مات الفتى وراح وسكن لحد(قبر) الفنا ولا خلف

ومن هنا نجد أن أهم ما يعزز مركز المرأة في بيت زوجها وفقاً للقيم الاجتماعية التي اصطلح عليها الشرقاويون مثلهم في

ذلك ككل أبناء مصر في معتقداتهم الشعبية واصطلح عليها المجتمع انجابها للابناء لكن في الوقت نفسه مراعاة الحرص على التنظيم في النسل وفي هذا يقول الراوي الشرقاوي :

الحب بعد الزواج من غير خلف بيزول

ويكون مصير الزوجين كده في الحياة مجهول

حتى الرباط المئدس(المقدس) **حيكون في يوم محلول**(منفرط أو مفكوك)

وكل واحد بيتمنى يكون لو(له) عيال

مش عشرة أبداً لكن بنت وولد معئول(معقول)

أما إذا تحقق الحمل ، تحاط الزوجة بكل رعاية واهتمام طوال فترة الحمل إلى حين موعد الحدث السعيد ، وتتم عملية الوضع بنجاح ويسارع الجميع بخدمة أم الوليد والعمل على راحتها وإذا حدث لها مكروه سرعان ما تتعلق الأسرة بما يشير إليه العرافون والمشايخ ومدعو السحر وغيرهم وتنفق من الجهد والمال ما يحقق لها إخراج (العمل) وإبطال السحر أو عيي الحسود ،والإلتزام بتعليمات (الشيخ)، والحرص على ما يمنحونه من أحجبة تقي من شر الحسد كما تجد من يقوم برقيتها من عين الحسود والشر. وقد جمع لنا (إبراهيم سلامة) أحد نصوص الرقية من قرية (عرب الشيخ يوسف _ الرحمانية_مركز أبو كبير) والتي تؤديها (الحاجة مبروكة ٧٠ عام) التي تقول في رقيتها الشرقاوية :**إيد الله قبل إيدي**رب المشارق ورب المغارب**

ولا يغلب الله غالب ** رقيتك واسترقيتك

من عين أمك ومن عين أبوكِ

من عين كل اللي شافوكِ ولاصلوش على النبي

الأوله بسم الله **والتانية بسم الله

والتالته بسم الله **والرابعة بسم الله
والخامسة بسم الله **والسادسة بسم الله
والسابعة بسم الله ** والتامنه بسم الله
تتفرق على قوم خلق الله
أنا بارقيك من فوق شافيك(شافيكِ)
ملوك السموات والأراضين تشفع فيك(فيكِ)
من عين أمك ومن عين أبوك
ومن عين القوم اللي شافوكِ ولاصلوش على النبي
ياعين يا عينية **يا خايتة يا ردية
سايقه عليكِ الكعبة النبويه
خدي شرك وبلاكِ **وروحي للي اشتهاكِ
الله أكبر عليهم ** عينهم ترتد ليهم
في كعوب رجليهم ** ومن اتطلع لك بالشين
تعمي له عنيه الاتنين **ومن اتطلع لك بالرديه
تعمي وتقصر له المنيه
ببركة الله والكعبة النبوية
وشيوخ الله المسميه**ودروب الله الممشيه
وبيوت الله المبنيه** ورجال الله المسميه
وكعبة الله النبويه **ولا غالب إلا الله الغالب
الملح والصوان في عيون النسوان والرجال
الملح الفاسد **في عين عدوي العاذل
الملح والدقيق **في عين العدو والصديق
ازاي احتار يا ملح يا سلطان **وتساعدني في الدار
أطلع من [وتذكر اسم المريض واسم امه]

ورجع له[لها] راحة البال

ببركة النبي عليه الصلاة والسلام

الله أكبر عليهم **عنيهم في كعوب رجليهم

أخصي عليهم **عنت الله وربي عليهم

ومصارين تقيد رجليهم** غشا تغشي عنيهم

يا كافي كل كفيه ** يا عالم بيهم وبياوبكل الخلق سويه

اطلع من [وتذكر اسم المريض أو المريضه] العين الرديه

كما طلعت صفيه (ذكرت مثالا على طلوع عين الحسود من المريضه عين صفيه من فاطنه النبويه)

من فاطنه النبويه **بعزايم الله القويه** ودروب الله الممشيه

ورجال الله المسميه ** الله أكبر عليهم **عنيهم في كعوب رجليهم

إن كان من مره **في عنيها شرشره

وإن كان من بنت **في عنيها بشت

وإن كان من ولد **في عنيه وتدوإن كان من راجل **في عنيه حد من المناجل

وإن كان من الضيف **في عنيه حد من السيف

وإن كان من عجوز **في عنيه حربه ببوز

وإن كان من نصارى** يفكها رب النصارى

وإن كان من مسلمين **يفكها رب العالمين

وإن كان من الله **يحمد العبد الله

الله أكبر عليهم ** عنيهم في كعوب رجليهم

إخصي عليهم **عنيهم في كعوب رجليهم

اطلعي يا عين بره **اطلعي يا عين بره

يا خرابة الدور العامره ** يا فتاشة القبور الضلمه

الله أكبرعليهم **الضيف محمد **والطبيخ عدس

والمره جيده **والراجل نحس

بحق من أفرط القمر وأنزل الشمس يفك عنك[............]

أما القصص الشعبية التي كانت شائعة في الشرقية كما كانت كذلك في باقي أنحاء مصر فهي قصة "أبو زيد الهلالي " والذي يعد من أهم شخصيات قبيلة الهلالية والتي سكن فخذ منها في الشرقية ،وقصة "الشاطر حسن "والذي يعتبر من زعماء قبيلة بني هلال وكان يلبس أحسن الثياب وأفخره ويهتم بالملبس والتأنق فضرب به المثل(فلان عامل أبو علي) على كل من يتشبه بالشاطر حسن في أناقة ملابسه وهندامه وأخلاقه الكريمة .إضافة لشيوع قصص شعبية أخرى مثل قصة (زهير وعنترة وبيبرس والزناتي خليفة وعلي الزيبق وغيرها من القصص التي اشتهرت وذاعت في مصر لفترات طويلة لازال أصداؤها تتردد من حين إلى آخر على ألسنة العامة ممزوجة بالأمثال الشعبية التي حيكت منها مثل:(**فلان زغبي**)نسبة إلى (دياب بن غانم)الحقود الذي يميل لسفك الدماء وقتل الأبرياء ،و(**سكة أبو زيد كلها مسالك**)،وكذلك تجد من يقول :(**كأنك يا أبو زيد ما غزيت ولا رحت ولا جيت**) .



تلك القصص والرويات وما تمخض عنها منأمثال شعبية ما هي إلا نماذج للصراع بين قوة الإنسان والقضاء والقدر وما التهليل والتحمس الذي كان يبدو في المقاهي والمصاطب لأبطال هذه القصص إلا تشفياً لهزيمة الشر والجبروت ذلك الشر الذي عانت منه مصر الكثير بسبب عامل الموقع والتاريخ والبشر والمبادئ والأهداف والمثل العليا وفي مقدمتها العدل الذي طالما

كانت مخيلة الناس تبحث عنه في شخوص وأبطال تلك القصص والملاحم . وللسير الشعبية في مصر طابعاً مميزاً في الصياغة وأسلوب الأداء ،يتصف بالاتساع والطول لما تلقاه من عناية شديدةً بالتفاصيل وحشد المفردات اللغوية وتوظيفها في عمل فني كبير مليئ بالوصف والتعليق والرمز ، وليس مجرد سرد لأحداث ووقائع عاشها أبطال السيرة ، إلى جانب المرونة الفائقة في معالجة الموضوعات والمواقف والشخصيات ،وهو ما أدى إلى وفرة وقوة وفنية النصوص المصرية للسير خاصة السيرة الهلالية في نصها المصري الذي عاشه أبطالها ، والنصوص هنا متأثرة بالروح المصرية وأساليبها في الرواية والأداء.من صياغة محكمة للأقوال والحكم كمحور أخلاقي شعبي ،يربط هذه القيم بالمعتقد الديني من ناحية ،والمعطيات الاجتماعية التي عاشتها والتي ترسمها الجدود والآباء من خلال تجاربهم وخبراتهم الواقعية من ناحية أخرى ،فيقول شاعر السيرة الشعبية الهلالية كمدخل لروايته:

أنا أول قولي عما أذكر الله ... وإلا هي ع الخلق راقم
ولا غيره ولا أعبد سواه ... خلقني وفصلني سالم
وحلو النبي وحلوه رقابيه ... لما هو بدر البُدُوره
من يوم جبرائيل رقى بيه ... من سابع سما فج نوره
صلاة النبي بتغْني عن القوت ... عما تمنع البلاوي المراضى
ويستاهل علقته بالسوط ... اللي معاه كفو الزيارة ما راضى

والمتتبع لتاريخ تلك القصص والسير الشعبية والملاحم يجد أنها ظهرت وانتشرت نتيجة لقوة شعور المجتمع بكيانه وربما – أزعم – أن ذلك الشعور القومي قد زاد اشتعالاًفي مصر مع بدايات الحملة الفرنسية تقريباً متزامناً مع تقلص الظل التركي فاستعار المصريون من موروثاتهم قصصاً يتغنون بها ويعوضون بها تطلعاتهم لقائد ينقذهم من براثن القهر واللامبالاة فكانت المقاهي وساحات الإنشاد هي ميدان الشعراء "ربباباتهم" ينتشرون بين الناس في النجوع والقرى وكل الأصقاع روح



البطولة والشعور بالنفس وإثبات الشخصية .ولعل ظهور الشاعر الشعبي وازدهار صناعته في مجتمع من المجتمعات يدل بجلاء من ناحية النفس الجماعية على يقظة الوجدان الشعبي . (٢٣) وقد التمس الشعب المصري عصر البطولة في سير فرسان العرب ولكنه أخذ هذه السير وعدل فيها وفي وظيفتها القبلية وحولها إلى وظيفة قومية وخاصة بعد الاحتلال الأنجليزي الذي رآه الوجدان الشعبي المصري امتداداً لحكم غير المصريين أو بعبارة أدق – كانت مألوفة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن الماضي – لحكم غير (أولاد العرب).

أسانيد الفصل الخامس

١- فتحي الصنفاوي:**التراث الغنائي المصري والفلكلور** ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٧٨،ص٨.

٢- أحمد مرسى : **الأغنية الشعبية** ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٦ ، ص ٨.

٣- المرجع السابق ، ص٧.

٤- قاسم عبده قاسم : **بين التاريخ والفلكلور** ، عين للدراسات ، ط١ ، ١٩٩، ص٤٤.

٥- المرجع السابق ، ص٤٥.

٦- عبد الحميد يونس : **مجتمعنا** ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٨ ، ص١٧.

٧- مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية ، ١٩٤١، ص١٤٧

٨- قاسم عبده قاسم : **عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسى والاجتماعى** ، عين للدراسات ، ط الأولى ، القاهرة ،١٩٩٨، ص ص ٣٧٤ ،٣٧٥.

٩- مرسى السيد مرسى : **الموال فى مركز الزقازيق** ، رسالة **ماجستير** غيرمنشورة ، آداب الزقازيق ، ١٩٧٨ ، ص٧٠وصفحات متنوعة

١٠-مرسى السيد ، **مرجع سابق** ، ص ١١٤.

١١-فتحى الصنفاوى ، **مرجع سابق** ، ص٧٦

١٢-مرسى السيد : **مرجع سابق** ، صفحات متنوعة.

١٣-مجلة مدرسة الزقازيق ، **المرجع السابق** ، ص١٤٨.

١٤-مرسى السيد :**رسالة ماجستير** سابقة، ص٧١.

١٥-مرسى السيد ، **المرجع سابق** ، ص ٨٨.

١٦-مجلة **مدرسة الزقازيق الثانوية** ،مرجع سابق صفحات متنوعة.

١٧-مرسى السيد:**القصة والحكاية والحدوتة الشعبية فى محافظة الشرقية**، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب الزقازيق،١٩٩١،ص١٤٢.

١٨-السيد محمد عاشور : **بلبيس بلد الانبياء والرسل** ، مكتبة الغد ، ص١٣٤.

١٩-مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية ،مرجع سابق صفحات متنوعة.

٢٠-فتحى الصنفاوى : **مرجع سابق** ، صفحات متنوعة.

٢١-مرسى السيد : **مرجع سابق** ، ص ١٣٢

٢٢-فتحى الصنفاوى : **مرجع سابق** ، ص ٧٠

٢٣-فتحي الصنفاوي :**مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية الغنائية**٢٠٠١م،صفحات متنوعة، وانظر :لطفي سليم :**الطفل في التراث الشعبي** ، القاهرة ٢٠٠٠م ص١٠٩ ،انظر ابراهيم سلامة : **من نصوص الرقية** ،مجلة الفنون الشعبيه ، العدد٦٦،٦٧ ص ١٣٧.وانظر :عبد الحميد يونس : **مجتمعنا** ، طبعة مكتبة الأسرة ،صفحات متنوعة.

الفصل السادس

الشرقية بين الشين والكاف والعين

(ش) قد استبان لنا حظ اهل الشرقية من **الشجاعة** الرائعة بما وقر فى نفوس أهلها من البسالة الحقة وكيف يتفجر الفلاح المصرى متعاملا مع السلطة بنبرة التهكم والسخرية والرفض مؤكدا وجوب تغيير وثورة شعبية ضد اللامألوف واللا إنسانى .



ورغم أن تلك الثورات الشعبية – وقد سبق أن تعرضنا لها – كانت تنتهى غالبا لصالح الحكومة القائمة حيث تفرض السلطة قراراتها قهريا إلا أن هذا الاحتكام الحربى كان يفرز على الجانب الآخر آثاراً حضارية فضلاً عن كونه دليلاً مادياً على خطأ ما تم ترويجه فى بعض كتب المؤرخين فى سياق تصنيفهم للشعوب مثل السيوطى والمقريزي وابن زولاق وغيرهم فى ترويجهم للخرافة القائلة :" **إن أهل مُصر عبيد لمن غلب أكيس الناس صغاراً واجهلم كبارا** " (١).

ولكننا نجد أن المصريين علـى امتـداد تـاريخهم الضارب بحذوره فـى فجـر التحريـر الإنـسانى كـانوا بالمرصاد لكل الطغاة الـذين فرضـوا سـطوتهم علـيهم ليبقى لدينا جـوهر الشخـصية المـصرية الثابتـة وهـى شخصية شعب اثبـت علـى مـر العـصور انـه يـؤمن بالاسـتعباد !!. ولكنـه اسـتعباد الحريـة للانـسان " إذ كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا" !!

فتراه إذ تقرأ ما كـان يقولـه لقمبيـز مـثلاً منـذ آلاف السنين وهو يتهيأ لاقتحام بلادهم أشـبه مـا يكـون بما قاله المصريون فـى الـسادس مـن اكتـوبر ١٩٧٣م وكأن إذاعتنا فى القرن العشرين المـيلادى كانـت تـردد ما قاله أجدادنا منذ قرون قبـل أن يولـد الـسيد المـسيح ووجدنا وقائع التاريخ تشهد بـذلك حـين كتبـت إحـدى الصحف "الروسـية" قائلـة : " **كـان عظيمـاً مرعبـاً** " معلنة عن الإنجاز الهائل الـذى حققـه شـاب "شـرقاوى" اسـمه " **محمـد عبـد العاطى**" (من قرية شـيبة قش_مركز منيا القمـح) اسـتطاع تـدمير قافلـة دبابـات مـن ٢٣ دبابـة إسرائيلية فى دقائق معـدودات خـلال (حـرب العاشـر





من رمضان ١٣٩٣هـــ) وتــدمير ٣ عربات مجنزرة من عربــات العــدو الإســـرائيلي واشـــتبك مـــع مقدمـــة اللـــواء المـــدرع ١٩٠ الإســـرائيلي وكان قائده (عساف يــاجوري) وكـــان هـــذا اللـــواء هـــو أحد أحتياطـــات العـــدو وأُرســـل لـــصد هجـــوم القـــوات المصرية ، فإذا به في مصيدة رجـــال الفرقـــة المـــصرية وتم أسر "عساف ياجوري" ومـــن معـــه ، وحـــدثت هـــزة عنيفة للعدو الإسرائيلي وفقـــد فـــي الأســـبوع الأول مـــن المعركة حوالي ٧٥% مـــن قواتـــه المدرعـــة . وأطلقـــت الصحافة الروسية عليـــه لقـــب صـــائد الـــدبابات وعنهـــا نقلت الصحافة المصرية هذا اللقـــب واشـــتهر بـــه وعنـــد سؤاله : **مـــا هـــى الـــصعوبات التـــى واجهـــتكم أثنـــاء المعركة ؟** فقال : " **ندرة المـــاء والطعـــام لكننـــا تغلبنـــا على ذلـــك بالتجلـــد والـــصبر وايثار كل واحـــد منـــا لأخيـــه على نفـــسه" "وقـــت المعركـــة لم أفكر فـــي أي شـــئ ســـوى مـــــصر ،لا الأســـــرة ،ولا الأصـــدقاء ، ولا أي شـــئ إلا مصر"**(٢). إذ هو ببطولته تلـــك



جسد قيمة جليلة من منظومة القيم النبيلة التي تتعرض للانقرض والتآكل في مجتمعنا ،فلقد غامر بحياته ، وكان يمكن أن يفقدها ،بل أغلب الظن أنه لم يفكر لحظة في الخطر الذي تعرض له هو وأقرانه ،لم يفكر في ذاته ، ولكن همه في تلك اللحظة انصب على حبه لمصر وإيثارها على نفسه. ففي هذا الموقف اختلطت قيم المروؤة والشهامة والنبل النابع من منظومة القيم التي انتجتها حضارتنا الضاربة بجذورها منذ فجر الضمير الإنساني ، فمصر دائماً على كر العصور والدهور كانت إما صانعة للحضارة البشرية أو حفيظة عليها وبرغم ذلك لم تنل مصر من معظم حكامها سوى القهر الذي جعل منها وطناً كتم حسرته ،وتحجرت مآقيه الدموع، برغم أنه ليس في الدنيا وطن هو أكرم على أبنائه منها فبينما لا يبقى على قيد الحياة في كثير من الأوطان الأخرى غير القوي المكافح الشديد الاحتمال. يعيش في مصر القوي والضعيف والقادر والعاجز والصحيح والمريض .ومصر الكريمة لم تبخل على أحد بشئ حتى أولئك الطغاة الذين لا يستحقون نعمة الحياة يعيشون على أرضها الطيبة الرحيمة المباركة راكنين لتأويلات نصوص الدين وتفسيراتها الخرافية

كـ(مبارك شعبي مصر) ومطمئنين لخرافة (أهل مصر عبيد لمن غلب) وربما لهذا لم يبتعد الرحالة (أوليا جلبي في القرن العاشر الهجري) كثيراً في سياق وصفه لمصر قائلاً : (بها كثيراً من الفساق والجبارين ولاسيما بين الطوائف العسكرية كما قالت الآية"من كل جبار عنيد"..فالويل لمن يهزم لأن الغالب يمزق بطون نساء المغلوب ويقتل الأجنة)) وربما كان مرجع ذلك كله أنه لم تتأسس لدينا بعد مقومات سلطة رحيمة بشعوبها طوال أغلب تاريخ مصر ، ناهيك عن أن الوجه الإنساني للحاكم في مصر مفقود لأنه ببساطة غير جدير باحترام ورهبة الذاكرة الشعبية المتخمة بصور البطولات حتى لو بدت زائفة وحتى لو ظلت عذابات للناس المغرمين دوماً بالقوة والأقوياء.

(ك) أما **الكرم** فهو أخو الشجاعة ، رضعا معا لبن الفضيلة وترفعا عن صفات الرذيلة وتطلعا إلى النبل وضمنا لأهلها السؤدد والشرف الرفيع.

فالكرم كان وسيلة أبناء الشرقية للحفاوة بالوفود العربية خاصة وأنه قد ورد في معاهدة الصلح غداة فتح مصر عددا من الشروط كان من بينها ما نصه: " على أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم

حيث نزلوا ومن نزل عليهم ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم.."(٣).

وكانوا من أشرف بيوتات العرب والذين رأوا فى الشرقية بيئة جيدة لارتباع خيولهم وإبلهم فى فصل الربيع وذلك لما كانت تتمتع به الشرقية من الخصب والمراعى الجيدة والمساحات الشاسعة إلى جانب متاخمتها من الشرق للصحراء حيث كان يتهيأ للعرب الصيد وتأديب خيولهم وتدريبها مع الإقامة فى جو قريب من جو البادية التى ما يزال الحنين الشديد يجذب قلوبهم إليها(٤).

وفشو الكرم فى الشرقية حبب إلى العرب مصاهرتهم ومجاورتهم مثل قبيلة " طئ" التى صارت مضرب الأمثال الشعبية فى الكرم وخاصة حاتم الطائى الذى صار الكرم مرتبطا باسمه فقيل الكرم الحاتمى.وقد استقرت قبيلة طئ فى أطراف الشرقية وعلى حدودها وعلى طول الحافة الرملية فى شمال سيناء وفى دمياط وما حولها وفى ناحية بنى شبل (مركز الزقازيق) ومنزل حيان (مركز ههيا) والمعينة (الهجارسة – مركز كفر صقر شرقية)(٥).

فضلا عما كان لقبيلة جذام اقطاعات فى الشرقية منها هربيط وتل بسطة ونوب وغيرها ، ولهذا السبب على ما يبدو اشتهرت العديد من مناطق الشرقية التى استقرت فيها بطون قبيلة جذام بالكرم الشديد من تلك المناطق بلدتى الجواشنة (مركز ههيا) والجواشنة (مركز السنبلاوين) نسبة إلى بطن الجواشنة وهم بنو جوش بن منظور بن بعجة المضروب به المثل فى الكرم والشجاعة(٦).

ولدينا أسر كثيرة هوت إلى هوة الفقر فى الشرقية من جراء ذلك ولكن بيوتها المجيدة لا تزال تنطق بالفخار لتلك الأسر العريقة فى الكرم والوفاء حيث آثروا غيرهم بالثراء الذى حققوه حيث نشب الغلاء وحدث الجدب والقحط فى مصر أيام الشدة المستنصرية فهب (طريف بن مكنون) أحد أبناء قبيلة جذام بالشرقية يمد الموائد فى مضيفته لتتسع لاثنى عشر الفا يأكلون عنده كل يوم حتى اضطر إلى أن يهشم الثريد فى المراكب وتحمل اللحم والثريد عبر الخلجان والترع لتسد حاجة الجوع ولم يتوقف الكرم النابع من الشرقية عند هذا الحد بل ان مهنا بن علوان وهو من بنى بعجة الذين استقروا بالشرقية حين طرقه الضيوف فى فصل الشتاء ولم يجد حطباً يوقده ليدفئ ضيوفه ويصنع لهم الطعام فاستخدم أحمال من أعواد القمح بمحصولها (بثمارها) فجعلها وقوداً محتذيا فى ذلك بما فعله حاتم الطائى حين نزل به ضيوف ولم يجد ما يسد رمقهم به سوى خصانه الوحيد فذبحه لهم

واستحق بذلك ان يعد مثلاً للكرماء والكرم الحاتمى(٧).

وقد أفضى الكرم الشرقاوى بأهل إكياد (مركز فاقوس الشرقية) عندما أنشئت سكة الحديد ومر أول قطار من فاقوس إلى الصالحية أن دعوا موظفى القطار وركابه لحفل أقاموه على قضبان الطريق رجاء أن ينزلوا على إرادتهم فى ضيافة كريمة ولكن سائق القطار كان انجليزياً فلم يحفل بدعوتهم ولم يأبه لكرمهم ودهم طعامهم وضرب المثل بهم فى ذلك الحين " **بأن الشرقية عزمت الوابور** كيداً فى المحتل الإنجليزى"(٨).ولايزال يتداول الناس تلك الواقعة من حين إلى آخر بطرق عديدة ومحرفة فى محاولة لإيجاد مبرر شعبى عن سبب قيام أجدادهم بدعوة القطار فذهبوا إلى أن القطار حدث به عطل فى رمضان وقت إطلاق مدفع الإفطار فخرج أبناء الشرقية بما لديهم من طعام لإطعام الركاب وما هذه القصة إلا نتاجاً للخيال الشعبى للعامة من ابناء الشرقية .

وظلت صفة الكرم لصيقة بالمجتمع الشرقاوى بدرجة أو أخرى حتى اشتهر ابناء الشرقية أنهم ليفون لأصدقائهم بواجب الولاء ويقومون بضمانهم ولو أدى ذلك إلى انتزاع أموالهم وفقد ضياعهم وأملاكهم ، ولنا فى مارية القبطية صاحبة قرية (طاء النمل) وهى قرية (كانت من أعمال الشرقية) صغيرة لم يعرها المأمون اهتمامه اثناء مرور بالشرقية على خلفية - الثورة الشعبية الكبرى (٢١٦هـ - ٢١٧هـ) فخرجت الفلاحة المصرية تستغيث بالخليفة حتى ينزل

هو ورفاقه ضيفا عليها حتى لا يعيرها أبناء جلدتها بعدم نزوله فى ضيافتها وحين لبى الخليفة دعوتها جاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته .فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكثم والقاضي أحمد بن داود فأحضرت لكل منهم ولا من القواد إلى غيره ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاكثيراحتى إنه استعظم ذلك وأكبره – على حد وصف المؤرخ المقريزي له – قدمت لهم نموذجا من كرم أهل الشرقية لخليفة المسلمين ورفاقه فما كان جزاء الإحسان إلا إحساناً والكرم إلا كرماً أعظم فوهبها الخليفة من أراضى قريتها مائة فدان بغير خراج واقطعها عدة ضياع.

وحسبنا الرحالة الهندي(النعماني) حين يشيد بهذا الكرم معلقا على ما لاقاه من كرم وحفاوة قائلاً: (إن هذا كان يحدث بلا غرض وبدون مقابل فقط من أجل الضيافة وإكرام الفقراء ومن المستحيل ذكر جميع تلك الأحداث الجزئية التي تدل على كرم أخلاق هؤلاء الناس معي) (٩).

وصبغ الكرم قديما أفراح ابناء الشرقية من العرب بصبغته فجعل أفراحهم تخالف افراح الكثير من أهل المدن وذلك أنه كان قبل يوم العرس بنحو الشهر يحتشد كل مساء شبان البلدة والبلاد المجاورة ويقفون على شكل نصف دائرة ويصفقون مع مد

أيديهم إلى الأمام وجذبها إلى الخلف بنظام واحد ويرتلون بعض الألفاظ بنغمة واحدة ويسمى هذا العمل " دق الكف" وترقص أمامهم امرأة محجبة أو بنت محجبةكذلك لايظهر منها شئ حتى وجهها وتلبس حزاماً وتمسك في يدها عصا أوسيفاً وتسير أمامهم وهى تحجل وترقص



بهز جسمها متنقلة من طرف نصف الدائرة الأيمن إلى طرفها الأيسر ويطلق عليها "الحجالة" أو " البيه " وكل ربع ساعة تقريباً يقف التصفيق والرقص ويبدأ أحدهم بإلقاء ثلث أغنية مترنما ورافعاً صوته ثم يستمر التصفيق وأخيراً يغني الثلث الأخير ويعيد معه الثلثين السابقين وعند الانتهاء منها يهلل الجميع وتطلق طلقات نارية كثيرة. وهذه الأغاني ذات معان مختلفة فمنها ما يكون دائراً حول الغرام أو النجوى أو الشجاعة ومنها ما يكون دائراحول مدح "الحجالة" ولكل أغنية أسلوب خاص يتغنون به أثناء تصفيقهم . والويل لمن اقترب من "الحجالة" فسرعان ما تضربه على يده بالعصى أو السيف . وإذا جاء يوم العرس أعد هودج على جمل تركب فيه العروس ومعها بنتان أو ثلاث من أقرب قريباتها ويسير خلف هذا الجمل

جمال تكثر أو تقل على حسب يسار أهل العروسين. وعلى كل جمل أربع أو ست نساء يغنين في أثناء سير الموكب نحو بيت العريس. ويتبارى الفرسان في إظهار مهارتهم أمام الموكب وكل فارس يأتي أمام جمل العروس ويرسل طلقات نارية كما يسير حول الموكب شبان ومعهم بنادقهم يطلقون منها طلقات نارية من حين لآخر. وعندما يصل الموكب إلى منزل العريس تناخ الجمال وينزل من عليها ويحمل العروس أقرب الناس إليها كأخيها أو خالها ومن عادات الكرم المغالى فيها أنه إذا مر موكب عرس على بلد فيها عرب الشرقية هب أهل البلد لدعوة الموكب ورفعوا رأس الذبيحة على هراوة طويلة (نبوت) فإن كانوا لا يضمرون شرا اكتفوا بتقديم الدعوة وتلقى الشكر وسار الموكب في سبيله وإن كانوا يضمرون شرا قدموا الدعوة وأصروا على قبولها وأصر اهل الفرح على رفضها لأنهم يرون في ذلك أكبر عار لأنهم هم الأحق بدعوة الناس إلى الوليمة فتنشب بين الفريقين معركة ويعتبرون الشرف في انتصارهم ورفض الدعوة ، ولذا كان يختار جمل العروس من أشد الجمال وعند نشوب المعركة ينزع مقوده لكيلا يستطيع أحد الاقتراب منه إلا صاحبه(١٠).

ولعرب الشرقية خصوصية متفردة في الكرم حتى يكلف أحدهم نفسه ما لايطيق ليكرم ضيفه ، والأخذ بالثأر والاعتداد بالنفس وحب السيطرة وأن يحترم صغيرهم كبيرهم حتى إنه لا يشرب القهوة ولايدخن ولا يمزح في مجلسه وهم مهرة في تربية الخيل وركوبها كما يجيدون الرماية والقنص ويخرج بعضهم في الربيع على ظهور جيادهم ومعهم كلاب

الصيد (السلوقي) والصقور والزاد والخيام إلى أطراف صحراء الشرقية أو إلى طور سيناء لصيد الأرنب الجبلي والطيور . وطريقتهم في ذلك أن الصياد يتبع أثر الصيد ويطارده ويطلق الصقر في أثره بعد أن يوجهه نحوه ويطلق الكلب في أثره كذلك فيطير الصقر حتى يكون فوق الصيد فينقض عليه ويرفرف بجناحيه على عينيه ووجهه فيعطل حركته حتى يدركه الكلب فيمسك به من رجله ويأتي الصياد ويأخذه وقد يستعمل بندقيته المخصصة للصيد عند الحاجة .



واستمروا إلى عهد قريب لا يخالطون بقية المصريين ولا يصاهرونهم ولكن الآن قد بدأوا يمتزجون ويتزوجون من بناتهم . ويذكر (عبد الباسط حنضل جمعه)_ من عرب الشرقية المسنين _ أن عرب الشرقية كانوا في الماضي يكرهون التعليم ويحتقرون من يذهب إلى المدارس ولكنهم الآن بدعوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس وقد أظهر بعضهم نبوغا ونباهة . ويميلون إلى تسمية أبنائهم بأسماء مخيفة أو مريرة أو ثقيلة على السمع مثل حنضل ، وغومة ، وزعار ، فدغم ، ضرغام ، متعب ، مناع ، وشداد ، ويسمون خدمهم و بناتهم أسماء مبشرة أو مفرحة أو خفيفة على السمع مثل: فرج ، سعيد ، ابراهيم ، نجم، سعد ، مصباح ، سعدة ، عزيزة، غالية، وذلك لأنهم يعتقدون أن للاسم تأثيراً في أذن السامع وفي إيحائه ، ففي جانب الرجل



يخيف الاسم عدوه وفي ناحيـــة الخـــادم والمـــرأة يطمـــئن الاسم السامع وفي ذلك يقولون :

أسماؤنا لأعدائنا وأسماء عبيدنا لنا

الحال نفسه في نظرتهم لتسمية خيولهم العربية الأصيلة فهم يسمون خيولهم بأسماء قوية حماسية تبعث على الهيبة والاحترام والخوف لدى من يسمعها ومن تلك الأسماء التي يطلقونها على خيولهم:



دهمان ، المعنقي، صنديد ، مشعان ، جدعان ، ناصر العرب ، فارس الصحراء ، جدران ، ابن الليل ، فارس العرب . ولهم وجهة نظر في ألوان خيولهم ؛ فهم يرون أن اللون الأبيض واللون الأشهب (لونه أبيض والذيل أسود) هما أكثر الألوان تحملاً للعطش ، ثم يرون أن اللون الأحمر واللون الأدهم (مابين الأحمر والأسود) واللون الأسود هم أقل الألوان تحملاً للعطش وأكثرهم عرقاً ، ومن الألوان الأخرى ؛ الأشقر ، الماوردي ، والكستنائي والأزرق الحديدي (لون الحديد وشعره أميل للأسود)، وقد يأتي المهر المولود لأبيه أو لأمه أو لأجداده في اللون وفي الحجل فلا غرابة في ذلك. ويفضل عرب الشرقية الحجل (البياض في أيدي وأرجل الخيل) في الخيل ويبحثون عنه عند الميلاد مباشرة ، وهناك بعض الصفات التي تتوارثها الخيل من أجدادها من الرشاقة والجمال والحجل ومن الممكن أن تستمر هذه الصفات حتى الجيل الخامس.ومن بعض مجاريدهم (أشعارهم) في الخيل قولهم :

شوقك شوق كحيلة الأصيلة(أحد بيوت الخيل)

تغلب في الميز (السباق)وصُباره

ما فيها من الشين (العيب)وقية

تعجب في الناس النظارة

بالسوم(أغلى ثمن) الغالي مشرية

جيدة في الخيل وسيارة

وصـــــــاحبها عنده مـــــالية

ما يطلب من واحد بارة(عملة)



ويحفظ كثير من عرب الشرقية وصفات طبية مفيدة ولهم ثقة فائقة في الكي والخزام ولهما عندهم فن يجيده بعضهم ، كما يلجأ بعض الناس إلى عرب الطحاوية ومعهم آنية من الأواني ويطلبون قليلاً من لبن الخيل لمداواة بعض الأمراض ، مثل أمراض العيون والأمراض الجلدية وما إلى ذلك من أمراض . وأيضاً يستخدم بعضهم سبيب الخيل (شعر الذيل) في علاج السنطة وهي أن تربط السنطة بالسبيبة حتى تجف وتسقط. وترى النساء أن للحدوة (برواز من الحديد يوضع أسفل الحافر ليحافظ عليه) علاقة بالخير الوفير ، ويرون أن هذه التميمة تجلب عليهم الرزق والفأل الحسن ، ومن الاعتقادات الشائعة أنه إذا كان عند جارك فرس فافتح بينك وبينه نافذة ليأتي منها الخير ، وتربط خرزة زرقاء زجاجية في عرف أو ذيل الفرس أو شعر سنام الجمل ليجلب الحظ السعيد . والنساء ينقسمن عندهم إلى نوعين منهم نساء عرب

المشارقة وهن محجبات ولا يخالطن الرجال . أما نساء عرب الغرب فسافرات ويخاطن الرجال بعد الزواج .

ومن أشهر قبائل العرب في الشرقية الهنادي وهى تتفرع إلى بيوت منها بيت الطحاوية وهم منتشرون في المحافظة بجهة فاقوس ومن عائلتها ؛ عائلة محمد بك سعود وعائلة الحاج عبد الحميد راجح الطحاوي وعائلة فدغم والبهجة وهم بفاقوس وكان من كباره أيضاً العمدة الشيخ محمد صميدة والشيخ عبد المطلب جايل وعائلة الفواخر وكان كبيرها الشيخ عبد السلام رشوان وعائلة الأفراد بههيا وكان كبيرها الشيخ عدلان زيدان وعائلة إسلم بكفر صقر وكان كبيرها الشيخ حسين عبد السميع . وقبيلة سمالوس وقد حضرت من وادي سمالوس في طرابلس الغرب واستوطنوا الشرقية والفيوم والبحيرة . وقبيلة النفيعات وكان كبيرها الشيخ إبراهيم أبو صالح وأبو نصر الله والطميلات وكبيرها أبو بغدادي والبياضين وكبيرها من أسرة أبي مرزوق وهذه القبائل الثلاث من المشارقة وقبيلة بلى والضعفا والعيايدة وهتيم وكان كبيرهم سلامة شاهين والسماعنة والصوالح والحرابي والسعديين وكان كبيرهم محمد بك شلبي وأولاد موسى وكان كبيرهم محمد بك بدران والأخارسة .وقد بلغ عدد عرب الشرقية بحسب تعداد سنة ١٩٢٧م نحو ٤٦٤٤٠ منهم نحو ٢٣٠٠٠ ذكور و٢٣٤٤٠ إناث



وزي العرب في الشرقية على أنواع كثيرة فمنهم من يلبس الطاقية والكوفية والعقال) ومنهم من يلبس العمامة والشملة (الحرام) والجلباب . أما النساء يلبسن نقاباً

محلى بقطع من الذهب والفضة أو يكن سافرات . ويتميز أغلب نساء العرب بالشرقية بلبس حزام عريض أحمر أو أبيض في وسطهن ويلبسن الحلي من الذهب والفضة في أنوفهن وآذانهن ومعاصمهن وأصابعهن . وكلما كان الحلي كبيراً كلما دل ذلك على ثراء لابسته ؛ ويتخذن الوشم الأخضر على الشفة السفلى والذقن وظهر اليد للزينة.

ولعل أحسن العادات عندهم هو نظام المقاضاة .



والقضايا نوعان ؛ نوع خفيف وفي هذه الحالة يذهب الطرفان إلى قاضي من قضاة العرب وهم أشخاص مشهور عنهم الاستقامة والصدق وقوة الحجة ، وعادة لا تخلو كل قبيلة من عدد من الرجال تتوافر فيهم هذه الصفات ويرضى الطرفان بحكم القاضي وينفذونه في الحال أو بعد مدة وجيزة يحددها القاضي . أما النوع الثاني وهو المهم إذا كانت الخصومة شديدة لسبب من الأسباب فيذهب الطرفان المتخاصمان إلى رجل محترم من أفراد القبيلة ويجتمع الطرفان في منزله ويسمى صاحب المنزل في هذه الحال الملم (أي جامع الأخصام في منزله) وهذا الرجل عليه أن يختار ثلاثة قضاة من رجال العرب ويعرض الأسماء الثلاثة على النتخاصمين وعلى الطرف الول أن يختار اثنين من الثلاثة (ويعدف) الثالث أي لا يقبله وعلى الطرف الثاني أن (يعدف) قاضيا منالاثنين فيكون الطرفان قد قبلا حكم قاض واحد ثم يذهب الطرفان إلى هذا القاضي في معد محدد . وأول ما يفعله القاضي أن يحدد مبلغا من المال

يدفعها كل طرف من طرفي الخصومة ويسمى هذا المبلغ (رزقة) وهذا المبلغ يظل عند القاضي حتى ينتهي الفصل في الدعوى فيأخذ القاضي مبلغ المحكوم عليه أما الآخر فإنه يرد إليه مبلغه . وهذه الـ (رزقة) يأخذها القاضي نظير ما صرفه من مأكل ومشرب وغيرهما وفي كثير من الأحيان يرفض القاضي هذه (الرزقة) إذا كان موسراً . وبعد أن يقدم كل من طرفي الخصومة الرزقة يطلب القاضي من كل منهما ضامناً ويسمى الكفيل أو الضامن وهذا الكفيل يقوم بكل ما يتأخر فيه صاحبه . وفي يوم الجلسة يطلب القاضي من كل طرفي الخصومة أن يختار شخصاً ليدلي بحجته أمام القاضي وبعد سماعهما يصدر القاضي حكمه فإن قبل الطرفان هذا الحكم نفذ في الحال أو في مدة يحددها القاضي ، وإذا لم يقبل أحد الطرفين هذا الحكم تحال القضية على القاضي الذي (عدفه) وتسير القضية سيرها من جديد . وإذا فرض أن أحدهما لم يقبل الحكم تحال القضية على القاضي الثالث وفي هذه الحالة ينفذ الحكم الذي وافق عليه اثنان .

وهناك حكم فصل للقضايا التي لا توجد فيها أدلة إلا وهى (البشعة) وهي عبارة عن آنية من النحاس اها يد طويلة يبلغ قطرها حوالي ٢٠ سم وطول يدها حوالي٦٠ سم وصاحبها رجل يسمى (جربيع)من عرب المشارقة ببلبيس . والطريقة أنه يذهب



إلى جربيع هذا كل من المتهم والذي يتهمه ويدفع المتهم مبلغاً من المال لجربيع الذي يضع كومة من الخشب ويشعل النار ويحمي فيها **(البشعة)** حتى تحمر تماماً وفي أثناء ذلك ينصح المتهم بأن يصدقه القول ويعترف فإذا لم يعترف وأصر على لحس **(البشعة)** كشف جربيع على فمه ولسانه وأخرج البشعة من النار ومسحها بيده وقدمها للمتهم ليلحسها بلسانه . وهم يعتقدون أنه إذا كان بريئاً فإنه لايصاب بأذى أو بسؤ أما إذا كان مذنباً فإنها تضره ضرراً بالغاً . ولا أدري على وجه اليقين ما السر في هذه الآنية اللهم إلا إذا كان الأضطراب والرعب يجفف الريق في حالة الشخص المذنب فتكون النتيجة أنها تضره بمجرد لحسها في حين أن الاطمئنان والهدؤ في حالة الشخص البرئ تجعله يقدم عليها وهو مطمئن القلب فلا تضره أو تصيبه بسوء . ويقال : أنه كثيراً ما دفعت هذه (البشعة) بعض المذنبين إلى الاعتراف وكثيراً ما كانت سبباً في حقن الدماء وعادة لا يلجأ إلى البشعة إلا في الأمور الهامة .

وعلى كل حال فنحن نرى الآن أن تيار المدينة قد جرف كثيراً من عادات عرب الشرقية وتقاليدهم فاندمجوا فى المصريين،كما يوجد الكثير من عامة الناس في مصر أصلهم من شبه الجزيرة العربية ، ولكنهم لم يهتموا بإثبات جذورهم فضاعت وأصبحوا معتبرين كبقية المصريين وامتزجوا معهم وشكلوا سبيكة حضارية واحدة وربطت بينهم عوامل صنعها الله ودعمتها إرادة القدر ولم تفتعلها تصاريف الإنسان أو نقائص البشر .

لذلك يصح القول: إن عوائد الكرم وطبائعه الشعبية التي وضحت معالمها في سكان الشرقية وأقرانهم من أقاليم مصر الأخرى قد ارتبطت بجذورها العربية والوطنية في آن واحد حين انصهر العنصران على جنبات نهر النيل المعطاء لتنسج وشائج تعكس درجات عالية من السمو الإنساني الذي يتجه إلى الآخر إما فداء له أو وصلاً ومحبةً وإكراماً وحنواً عليه وكلها وشائج ترتفع بالسلوك الإنساني وتجعل لوجوده وحياته معنى وقيمة مضافة إلى مجتمعه ناهيك عن أنها تخرجه من منظومة الأنانية والبخل والجشع والتي تطرد تلقائيا كل معاني "القناعة" ولا تدع مجالاً لمفهوم الكرم والإيثار الذي سيبدو بالنسبة لكثيرين أمراً غير قابل للتصديق.

ومن كان يصدق أن رفات الزعيم المصري(**محمد فريد**) لم يتم إستردداها إلى مصر سوى بأيدي رجل شرقاوي كريم هو " **الحاج خليل عفيفي**" التاجر بالزقازيق.. الأمر الذي دفع بأحد تلاميذ مدرسة الحزب الوطني الذي أسسه الشاب والزعيم(مصطفى كامل) ، وهو المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بأن



يدهش من أن يقوم بهذا الواجب عن الأمة بأسرها فرد ليس من الزعماء ، ولا من الرؤساء والكبراء ، وتساءل كيف لم يتسابق هؤلاء إلى القيام بهذا العمل ؟؟ وهم أجدر به من سواهم ولكن شاء القدر أن يكون الشرقاوى(**الحاج خليل عفيفى**)هو الذى يضطلع بهذه المهمة السامية الجليلة



فيسافر إلى المانيا ويتولى بنفسه وعلى نفقته الخاصة نقل الرفات الطاهر إلى مصر[١١].فنجد فى هذا الموقف أنه قد اختلطت قيم المروؤة والشهامة والكرم والنبل والإيثار ورد الجميل وهى قيم تدخل فى أولويات ما اصطلحنا على تسميته بهموم العمل الوطنى وقيمه التى انتجتها ثقافتنا الإسلامية العربية وظلت لصيقة بمجتمعنا بدرجة أو أخرى إلى أن لاحقها التفسخ والتشويه والتغريب مما أدى إلى تراجعها و تآكلها ومن أسف أن ذلك تم لحساب قائمة أخرى من القيم المادية التى



تحولت بمضى الوقت إلى قيم مركزية فى مجتمعنا .

فهـــــل آن الآوان أن يعـــــود (عبد الله النديم) الذى ولد بالطيبة(فـــي شـــهر ذي الحجـــة

سنة ١٢٦١هـ) - إحدى قرى الشرقية - وعاش في الإسكندرية - إلى حضن الوطن الذى أعطاه النديم كل قطرة من دمه وكل لمسة من عبقريته ؟ ألم يحن الوقت لكى نسترجع رفات رجل دافع عن الاستقلال السياسى والاقتصادى للوطن أمام التدخل الأجنبى والاحتلال العالمى ممثلا فى انجلترا بالتحالف مع قوى أخرى . وظهر في أثناء ذلك وميض النهضة العرابية فوافقت هوىً في نفس عبد الله النديم فضمه جماعة عرابي إلى زمرتهم وشدوا أزرهم به . ألم يحن الوقت لرجل عرف قيمة العلم والتقدم وأهمية الكلمة والحرية والفن وأعطى كل هذا لمصر أن يعود من الأستانة (بتركيا) منفاه الأخير بعد محاولة للعودة على متن السفينة التى أقلت (الخديو عباس حلمي) عائدة إلى مصر ولكن السفينة أجبرت على الوقوف وأجبر النديم على مغادرتها ليموت خارج الوطن ومقبرته معروفة ومحددة ليعاد دفنه بين من أحبهم وعاش من أجلهم .؟


عباس حلمي باشا 1849-1854

(ع) وقد حالف عفاف وصدق الشرقية الزمان حتى ضرب بأهلها المثل فيه وليس أدل على ذلك من

تلك القصة الشعبية التي يرددها العامة في الشرقية من أنه قد شاهد أحد أمراء الوجه القبلي ابنة أمير بوباستس(صان الحجر) في حفل فطلبها لنفسه وعرض عليها أموالاً وافرة. فردتها قائلة للرسول : " اذهب فلست بغيا أسام بالمال ولن ينال ودى مادمت حية "(١٢).

والتزم أهل الشرقية الصدق فدعاهم ذلك إلى الصراحة فبرعوا من الغش والنفاق والمداهنة، وذهب عنهم الرياء وخلف الوعد والخيانة لأن هذه الرذائل وليدة الكذب وقد أشار الفنان الشعبي بالشرقية إلى مثل هذا المعنى قائلاً :

- يادنيا إيه السبب كدا ماشيه بالمألوب(بالمقلوب)

بئه(بقه) آيل(قائل) الحأ(الحق) ليه فى مجلسو(مجلسه) معيوب

واللى ينافئ(ينافق) الناس يبئه(يصبح) عندهم محبوب

والحر اللى بيمشى شريف ع الدوام مسبوب

هته(حتى) الفصيح انخرس وتاه مع الأسلوب

أما الغني لو غبي كلامو(كلامه) ع الدوام محبوب

وان عاب كتير في كلامو(كلامه) محدش نائض لو(ناقد له) عيوب

ايه الحكاية يا زمن ما يكنش دا المكتوب

معلش بئه(بقه) يا زمن أنا حاأصبر كما أيوب

وقد رماهم أهل الأقاليم الأخرى بالبلـه **(العـبط)** بـل وذهبوا أبعد من ذلك بوصفهم بأنه :" **شين ، كاف ، عين** " أختصاراً لقولهم : " شرقاوى ، كوركى ، عبيط " ليتصدى لهم الوجدان الشرقاوى بتلقائية ليرد عليهم بقوله بل : " شرقاوى ، كريم ، عفيف " رافضا كل محاولات تشويه صفة الكرم لديه بكل ما تحمله من معان وقيم لاتزال لصيقة به بدرجة أو أخرى ، وعموما ستجد أن انتشار التعليم وكثرة الانتقال والاحتكاك والانفتاح أزال الكثير من غشاوة ما يدعيه بعض البخلاء من أنه " **عبط الكرم الشرقاوى** " وقلة التجربة فأدركوا الحسنيين.!!

وليس أدل على هذا أن الشرقية انجبت للأم الرؤوم مصر روادا ساهموا بالقدر الوفير فى رسم خريطة الفكر والفن والإبداع والدين والعلم فى مصر والعالم العربى على مر العصور ، ولعل الأمثلة تفوق الحصر إذ نشير إلى :عبد الله النديم ، عبد الله

الشرقاوى ، عزيز أباظــة ، وأحمــد عرابــى ، يوســف إدريس ، صـــلاح جــاهين ، مرســى جميــل عزيــز ، محمد مندور ، خالد محمــد خالــد ، هاشــم الرفــاعى ، طلعت حرب ، فكرى أباظــة ، عبــد الحلــيم محمــود ، صـــبرى الـــسربونى، المكبـــاتى ،.. وهنـــاك كثيـــرون غيرهم. من الرواد الذين أثروا وجــداننا بــوفير العطـــاء وصدق الرسالة وعفة اللسان ولا يــزال التواصـــل قائمـــا والعطاء لا ينفذ إذ تخرج – مــن خـــلال هــؤلاء الـــرواد – أجيال جديدة تعلــن عــن نفــسها وبإصـــرار ورغبـــة آسرين التقلب فى تربه الفـــن والإبـــداع الخـــصبة لترفـــع مشاعلها وأقلامها مجسدة رؤاها آمـــالا وآلامـــا لتؤكـــد أن الإبداع والفن هما أنبل التوجهـــات وأجلهـــا فـــى الـــنفس تاثيراً وعمقاً.

وقد أوجز الوجدان الشعبي موقفه من اتهام الآخرين له بالعبط مسجلاً ذلك انطلاقاً من خلفيته الدينية والأخلاقية مؤكداً على أن بذور الشجاعة والكرم والعفة. وإن اعتورها ما يمنع نموها وازدهارها لم تمت في نفوس أهلها لتمسكهم بمبادئ الدين الحنيف الذي يؤيد الكرم والعفة والإيثار وجبر الخاطر وخفض الجناح والشجاعة الحازمة البعيدة عن التطرف . وينذر الجبان والمنافق والبخيل بأفظع عقوبة على بخله وجبنه ونفاقه إذ يقول :

عجبي على واحد عايش ما بين الناس

منافئ(منافق) ونمام وبيجيب في سيرة الناس

حائد(حاقد) وفتان وبيفتن ما بين الناس

بيكره يشوف الخير حدا(عند) أهلو(أهله) وجيرانه

عايش بضرب اللسان يئذي(يؤذي) ويضر الناس

يارب انته(أنت) اللي عالم بما في ألوب(قلوب) الناس

فوضت أمري إليك يا عالم بكل الناس

بحأ(بحق) طه النبي تصلح فساد الناس

واللي بترضه عليه يارب تصبح ايديه تنباس

وحين رأى المتصوفون وأهل الورع والتقوى كرم أهل الشرقية وعطفهم على الدين وعظيم تقديرهم لأهله وفدوا عليها فصارت مزرعة خصبة لهم فكثر الأولياء فى صحاريها وقراها ومن أشهر طوائف الصوفية التى انتشر اتباعها بالشرقية ؛ الطائفة الأحمدية والشاذلية والمطاوعة ومن مشاهير الصوفية بالشرقية الشيخ محمد الغمرى (ت٨٥٠هـ) وكان له مريدين كثيرين من الفقراء وقد تعالى بعض أولياء الشرقية على السلاطين مثل الشيخ مجد الدين أبو بكر

بن اسماعيل الزنكلونى(ت٧٤٠هـ) والشيخ سليم بن عبد الرحمن الجنانى (ت٨٤٠هـ).

وكان للصوفية بالشرقية كرامات مثل: الشيخ غريب الديب (٩٠٠هـ) الذي يشاع حوله أنه كان يمسك بالثعابين دون أن يصاب بأذى ويكشف عن أماكن الأشياء المسروقة ووجدنا منهم من يدعى أن له المقدرة على التحول من إنسان إلى طائر ومن يحاول أن يتعرض له بأذى فإنه يحترق بنوره ومنهم من ادعى أنه إذا أراد عبور النيل من (ميت غمر) إلى (زفتى) ركب على ظهر تمساح ، ومنهم من ادعى أن له المقدرة على أن يجعل الجمل يسير في الهواء ومنهم مثل الشيخ (أبو العباس محمد الغمرى) ادعى أنه يستطيع إقامة عمودين من الرخام وحده مع ان هذا العمل يحتاج إلى عدة رجال ، وكذلك شيخ فقراء الشرقية الشيخ (محمد الشربينى) (ت٩٢٠هـ) الذى ادعى أنه يملأ الإبريق من ماء الترعة فيصير عسلاً أو لبنا حسب طلبه.وكذلك الشيخ (سعدون الجنزى) وهو رجل نظر إليه الوجدان الشعبى على أنه من أولياء الله الصالحين وله قبه فى بلبيس ورد ذكرها فى (رحلة النابلسى) وذُكر أن هذا المشهد مشهور يقصده الناس للزيارة والتبرك به وكذلك الشيخ

(سعدون السطوحى) والـذى كـان لا يـألف إلا الفقـراء والمساكين ويقـضى حاجـاتهم لـدى الـسلاطين وذكـر (النابلسى) فى رحلته أن الشيخ (الـسطوحى) كانـت لـه كرامات عجيبة وشهيرة جدا لا ينكرهـا أحـد مـن أهـل عصره [١٤] ومن العوامل التي سـاعدت الـشرقية علـى جذب العديد من الأولياء والمشايخ هـو مـا كـان يـروج بين عامة الناس من خرافات وأسـاطير حـول فـضائلها ومن ذلك ما ردده الرحالة التركي (أوليـا جلبـي) بقولـه: "أن أول ولد جاء إلـى الـدنيا بعـد طوفـان نـوح هـو (مصرايم بن بيطار)وقد رحل هـو وأهلـه إلـى بلبـيس فأعجبهم مناخها وجوها وقد أقـاموا بهـا مـدة . وكانـت بلبيس هذه مدينة السحرة قبل الطوفان كمـا كانـت مدينـة عامرة .. ويقال أنه مدفون بها سـبعة عـشر نبيـاً مـن أنبياء الله "

وقـد جـر ذلـك إلـى إحيـاء موالـد للأوليـاء والمـشايخ وبنـاء الأضـرحة لهـم حيـث الأعتقـاد أن الكرامة تظل للولي فـي حياتـه ومماتـه ومـن هـؤلاء المشايخ والأولياء بقريـة (الزنكلـون) الـشيخ (عبـد الله الرفاعي) والشيخ (رفاعة الرفـاعي) والـشيخ (منـصور الرفاعي) . وعن هـؤلاء يقـال إلـى الآن بـين عامـة الناس أنهم قد قـدموا إلـي مـصر مـن أرض البطـاح

بالعراق قاصدين ناحية زنكلون مقراًلإقامتهم في مصر . وقد نسجت المخيلة الشعبية للناس في الشرقية العديد من الكرامات حولهم فمنهم من يقول : أنه عندما أنه عندما حضر الشيخ (علي العوضي) إلى الزنكلون وأراد أن يستقر بها وتقاسم البلدة مع (السادة الرفاعية) وقع خلاف بينهم أي بين (المشايخ الرفاعية) و(العوضي) وتم رفع الخلاف إلى أمير البلاد ، فقال لهم الأمير من يظهر لنا كرامات أمام الناس فهو الأحق بالإقامة في البلدة وله حق الخلافة ومن لم يظهر كرامة فليرحل عن بلادنا فاتفقوا جميعاً على أن تظهر الكرامات على البهائم فخرجوا جميعاً إلي الخلاء فوجدوا قطيعاً من الخيول والإبل ترعى في حقول الأمير. فقال كبير الرفاعية : ستكون كرامتي علي الخيول ، وقال العوضي : وانا ستكون كرامتي على الإبل . فنادى الرفاعي على الخيول فأتت له مسرعة ووقفوا جميعاً صفاً واحداً فأشار إليهم الرفاعي فانطلقت الخيول مسرعة تجري حتى وصلت أرض (باق الحصان) ونادى على الخيول مرة ثانية فارتدت أيضاً بسرعة ووقفت صفاً واحداً.

جدير بالذكر أن (أرض باق الحصان) هي نفسها اليوم عزبة (أبو هلال بالزنكلون)وقد اكتسبت

اسم (باق الحصان) من بعد ظهور كرامة الرفاعية التي حدثت أمام أعين الناس كما يشاع .

وجاء دور الشيخ العوضي فأطلق صيحته على الإبل (الجمال) فجاءت اليه واصطفوا جميعاً أمام العوضي



فأشار إليهم فانطلقوا مسرعين حتى وصلوا منطقة تسمى الآن (سطح الجمال) وأطلق على تلك المنطقة ذلك الاسم بعد ظهور كرامة العوضي أمام أعين الناس. ويعرفها العامة من الناس الآن باسم (السطوحات) . واحتار الأمير بينهما فقال لهما اقتسما البلد بينكما ؛الجهة القبلية للرفاعي والجهة البحرية للعوضي . فارتضوا على ذلك

واعتاد أبناء الرفاعية أن يطلقوا على (الزنكلون) اسم اشتهرت به بين الناس وهو (زين الكنوز البيضاء). وقد ذاع صيت الرفاعية في جميع البلاد المجاورة وأقاموا لهم مسجداً كبيراً بالزنكلون.

ويشاع بين الناس أن الرفاعية قد وصلت أخبار كراماتهم إلى الظاهر بيبرس فاستدعاهم إليه لزيارته والتبرك بهم وأنعم عليه السلطان بيبرس ومنحهم ما يحتاجون إليه ووهب لهم أرضاً زراعية بناحية الزنكلون تسمى حالياً (أرض الرزفة) .

والرفاعية لهم مقامات ومنزلة عالية بين عامة الناس في الشرقية حتى اليوم وكذلك نجد العديد من الأولياء الذين شاع حولهم خرافات الكرامات والمعجزات التي لا تتوافق مع منطق وبديهية الأمور ومنهم الشيخ (علي العوضي) الملقب بالسطوحي – والذي سبق ذكره – ويقال عنه : أنه جاء الى الشرقية واستقر بالزنكلون في مستهل القرن السادس الهجري وقد أوفده السيد أحمد البدوي إلى الشرقية وقال له: كن عوضاً عني بالشرقية فسُمي (بالعوضي) وقد ظهرت كراماته على المواشي فكان الأهالي يتبركون به لشفاء مواشيهم من الأمراض وتعثر الولادة وقد اقيم له ضريح بالقرية لايزال يتردد عليه الناس إلى الآن . وقد شاع أيضا كرامات عديدة حول أخيه الشيخ (سلامة العوضي) فأُقيم له ضريح كبير بقرية (ميت حبيب) في بلبيس.

أمـــا الـــشيخ (حـــسانين أبـــو مـــراد) المـــدفون بالـــشرقية (بقريـــة الزنكلـــون) فقـــد ظهـــرت كرامتـــه المزعومة (عام ١٨٩٨م) حين وقــف الأميرأحمــد ســيف الدين (حفيد ابراهيم باشا ابــن محمــد علي وشقيق الملكة شــويكار زوجــة الملك فؤاد) فـــي الكلـــوب الخـــديوي بـــشارع المنـــاخ بالقـــاهرة . أمـــام الأمير فؤاد (أصغر أنجـــال الخـــديوي اسماعيل وهو نفسه صـــاحب العظمـــة



فؤاد الأول 1917 - 1936م

السلطان فؤاد ، كما لقـــب بـــذلك عنـــدما تـــولى عـــرش مصر سنة ١٩١٧م ،ثم تغير لقبه إلـــى حـــضرة صـــاحب الجلالة ملك مصر عنـــد إعـــلان الاســـتقلال فـــي ســـنة ١٩٢٣م.)، وصـــاح الأميـــر ســـيف الـــدين وهويـــشهر مسدسه :سأقتلك وأدركه برصاصة اســـتقرت فـــي فخـــده وأخرى استقرت ببطنه وطاشت الثالثة جـــزاءً لـــه علـــى سؤ معاملته لأخته الأميرة شويكار.

وقبض على الأميـــر ســـيف الـــدين . وكـــان هـــو المالك لـــلأرض الزراعيـــة بـــالزنكلون، وقبـــل النطـــق بالحكم على الأمير بيوم واحـــد ، ذهـــب مفـــتش التفتـــيش بالشرقية إلى الأمير وقال له : إن عنـــدنا شـــيخاً مبروكـــاً يدعى (أبو مراد) وسأطلب منـــه الـــدعوات لـــك . فجـــاء

المفتش إلى الشيخ أبو مراد ، وطلب منه الدعاء للأمير سيف الدين بالخلاص من محنته . فقال الشيخ (أبو مراد) سيحكم له بالبراءة غداً ولكن سيبعد عن البلاد ، وفيَ اليوم التالي حكم بالبراءة، وذهب الأمير سيف الدين إلى الشيخ أبو مراد ، وقال له اطلب ما تشاء ووهبه أرضاً ليبني عليها منزلاً ومسجداً ولا يزال ضريح الشيخ (أبو مراد) يؤمه الناس إلى اليوم.

كما احتضنت الشرقية ضريح وجامع الشيخ(أبو خليل الكبير) بالزقازيق بمنطقة(كفر النحال) وهو كبير الطريقه الخليلية الصوفية بمصر ، وينظر إليه الناس باعتباره من كبار الأولياء وتقام له الموالد والاحتفالات برعاية حفيده الملقب بالشيخ (محمد صالح أبو خليل الكبير) والذي ينشر اتباعه حوله العديد من الخوارق والكرامات التي لا يقبلها العقل والمنطق ، وفى الشرقية يوجد كفر يعرف بكفر (أبى مسلم) وينسب إلى الشيخ(سليم أبى مسلم)، ويقال:أنه شريف من آل البيت ينتهي نسبه إلى جعفر الصادق رضي الله عنه ،ونسبه هو – سليم وكنيته أبو مسلم بن يوسف الهمذاني العراقي الذي ينتهي إلى جعفر الصادق ،ويشاع حوله أنه استخار الله عز وجل فى الذهاب إلى مصر وجاءت له رؤيا فى منامه : أنه رأى ناراً قد اشتعلت بالمشرق ثم امتد لهيبها الى همذان فالعراق فالشام حتى

وصلت الى جبل الطور بمصر فانطفأت وخبا لهيبها ،فلما استيقظ من نومه أخبر أهله وأقاربه بذلك فقيل له رؤياك تدل على أن دولة لاتؤمن بالله تهجم على بلاد الاسلام التى رأيت فيها النار فتهلك الحرث والنسل وتعيث فى الأرض فساداً ويقضى عليها فى مصر، ولعظم مقام أبى مسلم فى نفوس أهله وذويه خضعوا له واستجابوا لرغبته فى الرحيل الى مصر،لينجوا بمشيئة الله من الفتنة المنتظرة التى تحققت بالغزو التتارى لبلاد الاسلام.وكان وصوله الى مصر(سنة ٦١٠هجرى) ونزل ضيفا على ابن عمه إبراهيم بن منصور وكان مستقراً بمدينة القاهرة حيث يتولى خطبة الجمعة فى جامع عمرو بن العاص وكان ذلك فى عهد الملك العادل الأيوب.، لم يبق أبو مسلم فى القاهرة أكثر من أسبوع .

ثم اتجه إلي الشرقية واتخذ له خلوة بمدينة بحطيط التى عرفت فيما بعد باسم(كفر أبى مسلم) على اسمه ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى توفى بن عمه إبراهيم بن منصور فسافر الى القاهرة لحضور جنازته مع جمع من أنصاره ثم عاد الى بحطيط .وبعد بضع سنوات سمع العالم الاسلامى بقيام حملة التتار على بلاد الإسلام وغزو همذان وفعلوا بأهلها الأفاعيل وتحققت الرؤيا التى رأها أبى مسلم قبل أن يرحل الى مصر.

ويقول أهل بلدته أن حياة (أبو مسلم) فى مصر كانت سلسلة متصلة من حلقات الجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا لايكفون عن الاغارة على سواحل مصر الشمالية ومن صور جهادهَ أن تراه تارة داعية يعظ ويرشد ويحث على الجهاد ، وتارة يصحب أتباعه مشاركا بنفسه على كبر سنه في ساحة الوغى ولذلك نرى أضرحة الكثير من أهله منتشرة فى (بلقاس والمنصورة) ممن استشهدوا فى الحملات الصليبية على دمياط والمنصورة وكان أحياناً يحمل على ظهره إبريقاً كبيرًا يسقى به المجاهدين أثناء القتال حتى فارق الدنيا فى (سنة ٦٤٥هجرى) فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ودفن في محلة بحطيط المسماة الآن(كفر أبى مسلم) حيث خلوته التى يتعبد فيها ، يذكر أهل قرية أبى مسلم أن الشيخ اختار هذه البقعة المباركة مكاناً لإقامته لأنها تحفل بالأحداث والذكريات الدينية مذ فجر التأريخ فيقال أنها المكان الذى ذبح سيدنا موسى عليه السلام فيه البقرة لبنى إسرائيل ، كما يقال أن هذا المكان كان فى عهد سيدنا يوسف مخزناً للغلال، وأنه الممر الذى عبر منه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى مصر، ولذا يقام له احتفالاً سنوياً كبيراً وقد توالت الاحتفالات والموالد بالشرقية. فراجت التجارة البسيطة المحلية ونشطت المواصلات وانعشت الفقراء والمساكين واشبعتهم ثريدا

ولحما وفطيرا وخبزاً ووهماً. [١٣]وتصوفاً أحياناً فغيبة النفس عن عالم المحسوس وإعراضها عن شواغل الحياة وجواذب المادة وأغراض الدنيا هو ذاته التطلع إلى شعاع نور الحق تبارك وتعالى وهو ذاته التصوف والزهد الحقيقي وليس بخزعبلات وخوارق الأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً أونفعاً سوى بيع الوهم والخرافة لمن يريدها وعليه نتلمس روح التصوف والتعلق بالزهد عند الراوي الشرقاوي بقوله :

باجول(أقول) لله فتيان درجهم ينجدوا العيان
ووجت(وقت) المشيئة تلتئيهم جم(جاءوا) عيان ببيان
عين البراقع ياليل وخلي المخبي يبان
خليني أشوف رجال النبي وأفين(واقفين) ع الأقدام
أن جت(جاءت) فـ ريح العصاري يفرح السهران
وإن جت عينيه يسمع منادي يجولو(يقول له)
جوم(قم) الحج(الحق) صلاة الجماعة دا الحرم مليان

لكن هذا التجوال لن يكون شاذاً متعباً بل فيه الاعتدال بين مطالب الروح ومطالب الجسد ولكي يتحقق ذلك نجده (أي المتصوف) يستعين برسول الله الكريم ، وأولياء الله الصالحين كي يتقرب بهم إلى هدفه الذي يرجوه . فمثلاً يقول الراوي :

صون العهود في صباك واتبع طريئ(طريق) الزين

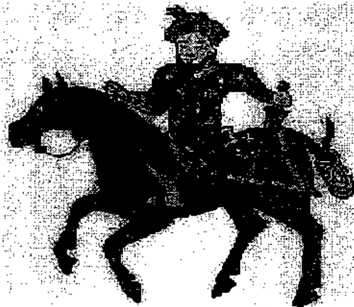
وإن زاد عليك الحال خليك مع القطبين

سيدي ابراهيم الرفاعي والبدوي أبي اللسامين

وحد إلآهك يا سيدي ولا تغفل بغمضة عين

ربك كريم وحليم وموفي عنك دين(١٤)

وهكذا تؤكد الشرقية أن كل شبر من أرض مصر يحمل بين طيات ترابه وذرات رماله عبق التاريخ وعبير فلكلور شعبه وأنشودة الأخلاق التى تخلقت مع بزوغ فجر الضمير الإنسانى ولتشهد أن تاريخ مصر ليس فقط تاريخ القاهرة أو الإسكندرية ولكنه تاريخ الأمة المصرية مجتمعة فى شخصية مصر الواحدة التى كان لها من السيادة المطلقة والقدم السباقة فى تكوين ثقافة العالم والدعوة إلى ضرورة الحفاظ على الثقافات المحلية الناشئة، من فروع هذا الشعب المصرى الكريم، والبيئات المحلية المختلفة المتآلفة ،التى يعيش فيها .



أسانيد الفصل السادس

١- السيوطى(جلال الدين عبد الرحمن): **حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة** ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ص٣٣٧: ٣٣٩.

٢- مجلة **الشباب** ، العدد ١٨٣.ومجلة **صوت الشرقية** ،العدد ٤١١، أكتوبر ١٩٩٨م

٣- ابن عبد الحكم : **فتوح مصر** ، المكتبة الثقافية الدينية ، القاهرة ،١٩٩٩م ،ص ٧٠ ، ١٥٢.

٤- احمد شحاته : **مرجع سابق** ، ص ٣٥٣.

٥- المرجع السابق ، ص ٤٢٣.

٦- القلقشندى : **صبح الأعشى** ، جـ١ ، ص ٣٣٢ ، وانظر أحمد شحاته : مرجع سابق .

٧- نفسه ، ص ٤٢٤.

٨- مجلة مدرسة الزقازيق ، **مرجع سابق** ، ص١٥٥.

٩- المقريزى : **الخطط** ، جـ١ ، ص ٨١ ، انظر :أحمد شحاته ، مرجع سابق ، ص ض ١٥٦ ، ٤٢٤.وانظر:هويدا عبد العظيم رمضان : **المجتمع في مصر الإسلامية** ،الجزء الثاني ،طبعة مكتبة الأسرة ،ص٨٠ ،٨١، وانظر : شبلي النعماني :**رحالة في بلاد الشرق العربي** ،ترجمة :جلال الحفناوي،سلسلة المشروع القومي للترجمة ،العدد٤٣٧ القاهرة ٢٠٠٣،ص٢٢٠

١٠- مجلة مدرسة الزقازيق ، **مرجع سابق** ، ص ص ١٠٠ ، ١٠١.وصفحات متنوعة.

١١- عبد الرحمن الرافعى ، **محمد فريد** ، **رمز الإخلاص والتضحية** ، ط٤ ، دار المعارف ، ١٩٨٤، ص ٤١٩.وانظر :الطحاوي سعود : الخيول العربية في أعين عرب الطحاوية ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد ٦٦،٦٧ القاهرة ٢٠٠٤ م.

١٢- مجلة مدرسة الزقازيق ، **مرجع سابق** ، ص ١٥٥.

١٣- محمد فتحى الشاعر : **مرجع سابق** ، ص ص ١٣٩ ، ١٤٧.وانظر :صلاح عيسى ،

حكايلت من مصر ، حكاية الأمير سيف الــدين ، الطبعــة الأولــى ، بيــروت ١٩٧٣م ،ص ١٧١وما بعدها. وانظر: محمــد بهــاء الــدين :الــدر المكنـــون في تاريخ الزنكلون ،ط١، مكتبة الصفاء ، صفحات متنوعة

١٤- وانظر: مرسي الصباغ:الموال فـــي مركــز الزقـــازيق ،رســالة ماجــستير ســابقة ، ص١٤٩ وصـــفحات متنوعـــة ،وانظـــر :الـــسيد عاشـــور:بلبـــيس ، مرجـــع ســـابق ،ص١٧٧،١٧٥ .

الفصل السابع

الزقازيق وأخواتها سنة ١٩٣٨م !!

بعض الأدباء والمثقفين الذين ارتحلوا إلى الشرقية – في النصف الأول من القرن العشرين أرادوا أن يعبروا عن تجربتهم من زاوية " مشكلة تكوين صورة " وكان ذلك أيضا شأن المصور الفوتوغرافي الذي أراد التقاط صورة للأشياء على نحو ما هي عليه بالضبط " للشرقية نفسها في واقعها الفعلي والحيوي .." .!! ففي صيف (سنة ١٩٣٨م) ترك لنا أحد السكندريين الأدباء مقالة قيمة بمجلة مدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية مسجلا فيها انطباعه عن الزقازيق فكانت مقالته بمثابة وصف تصويري لها نابعا من واقع المشاهدة والتجربة الذاتية مما جعل من سطور مقالته " أتم صورة ترسم حتى الآن لحياة الزقازيق في النصف الأول من القرن الماضي " ليس باستخدام اللغة التصويرية المجازية وإنما بفضل الوصف البسيط الواضح الذي استخدمه أستاذ اللغة الغربية :عبد العزيز أفندي فياض (كاتب المقال) الذي جعل الأشياء تتمثل حية أمامنا .

في (٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٨م) م نام عبد العزيز أفندي فياض في تلك الليلة مبكرًا ! ونامت الشرقية ، مع أننا مازلنا في الصيف ، في الواقع نحن في شهر أكتوبر . ومازلنا في وقت مبكر الساعة السابعة مساءً .

وفى هذا اليوم ... كانت قد مضت ١٠٦ سنة على بناء الزقازيق و٢٧سنة على وفاة عرابي و٥٧ سنة على مقولته الشهيرة : " لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا .." و١٨ سنة على قيام طلعت حرب بإنشاء بنك مصر .

مرة أخرى : نحن مازلنا في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٨م الجو حار ، وإن كان هادئا . وتلك الزقازيق على الحال التي رأيناها فيه ، إلى أن نامت مبكرة في تلك الليلة ... حين فارق عبد العزيز أفندي فياض مدينته

الإسكندرية – عروس البحر الأبيض المتوسط – كما كان ينعتها وقصد حاضرة مديرية الشرقية

منذ ذلك الحين لم ينس يوم قدومه إلى الزقازيق للمرة الأولى .

في هذا المساء لم يكن الضيف السكندري يتوقع أن ما كتبه سنة (١٩٣٨م) عن الزقازيق لم يتغير كثيراً وأنه لن يعنيها وحدها . فالزقازيق ليست المعنية فقط ..إنها مأساة الزقازيق وأخواتها ..فهي العاصمة بالتاريخ والجغرافيا .. بالفروسية والقوة .. جزء من وطن القهر الذي كتم حسرته وتحجرت مآقيه الدموع .. نهبوا إمكاناته .. فاستحضر تراثاً لملء فراغ الجوع ... رهنوا مقدراته فاستقوى بتاريخه على حاضر ومستقبل فرض عليه الخنوع واستمر كيد الزمارين فما بين آلام أبناء عاقين وضغوط لصوص معتدين اختصروا الشرقية في تكية فالمتعاون قهرا والمتعاون عمداً وثالث رآها وسية لا تستقيم إلا بالمحافظة على حمل ما خف وزنه وثقل ثمنه ... وتصمد الشرقية أمام واقعها الواهن وحواسها تصبوا إلى آياد تتلاقى تدفع العجز وتزيل التجاعيد تبحث عن ذاتها وأخواتها .. عن الزقازيق الصبية البهية .... !!

ومرة أخرى بصحبنا السكندري عبد العزيز أفندي في رحلته ويحدثنا عن مرارة تجربته قائلا : " أقلني قطار الصباح السريع إلى طنطا ، ومنها استقللت قطاراً آخر يمر بميت غمر ويقف على جميع المحطات بين طنطا والزقازيق – ولذا يقطع المسافة في أكثر من ساعة ونصف سار بي القطار وهو يطوى الأرض وسط المروج وأنا غارق في لجج من الأفكار والأحلام هائم في بيداء الخيال والأوهام ، أسبح تارة في ذكريات الماضي السحيق وأهيم أخرى في تقلبات الحاضر القريب وبغتة جمح جواد تخيلي وأطلق لنفسه العنان نحو الزقازيق فتصورتها في شتى ألوان الصور والأشكال : فتارة كنت أرها على نسق مدينة طنطا قد جمعت بين أبهة المدن وعظمتها

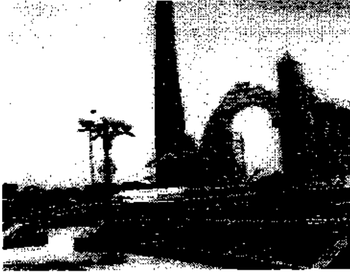
وبساطة الريف وجمالة وتارة أتخيلها كالمنصورة في بهائها وروعتها وسحر موقعها وطبيعتها ثم أعود فأتصورها في شكل أروع من هذه وتلك من حيث البناء والتكوين والانسجام نظراً لحداثة نشأتها وأهمية موقعها . ولا عجب إذ نحا خيالي هذا النوع من الموازنة والتفكير. فالزقازيق تعد بحق مفتاح مصر من الجهة الشمالية الشرقية وحاضرة مديرية من أهم مديريات الوجه البحري. وهى في الواقع من أحدث المدن المصرية إذ نشأت في عهد المغفور له محمد على باشا الكبير على أثر بناء القناطر المعروفة الآن بالقناطر التسع . ومهمتها توزيع مياه بحر مويس لري أراضى الشرقية؛ وقد وصفها المرحوم على باشا مبارك في كتابه الخطط التوفيقية الجديدة. ومن هذا الوصف نستطيع أن نكون صورة حقيقية للمدينة في عهد نشأتها .

فعندما شرع المهندسون في بناء القناطر السابقة الذكر اضطر العمال والمستخدمون أن يستحدثوا أكواخا من الطين وخصاصاً من القصب على جانبي بحر مويس لإقامتهم .، وتبعهم في ذلك باعة المأكولات .، ثم تكاثرت الناس شيئاً فازداد البيع وكثر بناء المساكن . وبعد الانتهاء من إقامة تلك القناطر سنة ١٢٤٨ هجرية (١٨٣٠ ميلادية) بقيت تلك الخصاص والمساكن عامرة حتى صدر الأمر العالي بالبناء والتجديد فكثر البناء باللبن والآجر وعندئذ "أقيمت المنازل الفاخرة والقصور المشيدة بالمونة والبياض والشبابيك والشيش والزجاج " ثم بنى ديوان المديرية بها ، وهكذا انتقلت الشهرة من مدينة (بلبيس) المعروفة قديما (ببسة) إلى هذه المدينة .

خطرت لي كل هذه الخواطر وأنا جالس في القطار فتكونت في مخيلتي صورة رائعة لمدينة الزقازيق الناشئة التي طفرت دفعة واحدة فأصبحت مدينة تجارية عظيمة تضم هذا العدد الموفور من المحالج والمطاحن والمصانع ، فتزداد مبانيها وعمائرها وأهلوها يوما بعد يوم ولاسيما بعد إنشاء السكة الحديدية بها. ثم حاولت أن أتصورها في عهدها الحالي وقد نمت وأينعت واكتمل شبابها وفتوتها بعد أن ولى عهد طفولتها .

استيقظت من أحلامي على صوت صفير القطار مؤذنا بسلامة الوصول فهرعت مع الركاب إلى النزول وسرت خلف الحمال الذي رفع

حقائبي على كتفيه بعد أن طلبت منه أن يرشدني إلى فندق نظيف أبيت فيه. سرنا جميعاً وأنا أتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا أرى أثراً مما صوره لي الوهم والخيال ؛ ثم نزلنا على درج يؤدى إلى قبو ممتد في قطاع عرضي تحت قضبان السكة الحديدية ويفضى إلى أجزاء المدينة المترامية الأطراف على جانبي المحطة . وما خرجت من هذا القبو ووطئت قدماي أرض المدينة حتى



حرت في أمري . وعبثاً ظللت أطيل النظر هنا وهناك علني أظفر برؤية وجهة المحطة وميدانها ؛ وأخيراً أيقنت أنه ليس للزقازيق محطة كسائر البلاد الأخرى : فالاسماعيلية وطنطا والمنصورة والمحلة الكبرى والقاهرة والإسكندرية وكثير غيرها من بلاد القطر المصري تمتاز بمحطات ذوات وجهات منسقة تنسيقا بديعا تشرف على ميادين وحدائق يرتاح لرؤيتها المسافر المقبل ويأسف على فراقها المسافر المدبر . ولكن الزقازيق خلت من كل ذلك وما هى في رأيي إلا مواصلة للسكك الحديدية تمر بها خطوط تسير فى اتجاه بنها وطنطا والمنصورة وبورسعيد ويحيط بها سور من البناء يمتد إلى مسافة بعيدة وأمامها كوخ خشبي لصرف التذاكر يقع عند بداية شارع عباس المعروف بشارع " البوسته " ، وشهرته هذه ترجع إلى أن مكتب البريد كان يقع فيه منذ بضع سنين ثم انتقل إلى داره الحالية بالشارع التوفيقي على شاطئ بحر مويس الشرقي .

ويجدر بي قبل الانتقال من هذه النقطة ألا أغفل الغرض الذي توخيته من وصفى لمحطة الزقازيق فهذه المحطة قد تكون لا غبار عليها إذا نظرنا إليها من الداخل ولاسيما أن محطة البضائع منفصلة عنها كسائر المحطات الكبرى ، ولكن أكبر عيوبها فى الواقع افتقارها إلى وجهة تشرق على ميدان رحب تقف فيه السيارات والعربات لاستقبال المسافرين كما هو الحال فى

أغلب المحطات ؛وهذا فى نظري أهم مشروع يمكن أن تجمل وتزدان به مدينة الزقازيق .

ولنعد إلى شارع عباس فأقول إن أهل الزقازيق ينظرون إلى هذا الشارع كما ينظر أهل القاهرة إلى شارع فؤاد أو أهل الإسكندرية إلى شارع شريف . ومن الغريب أن هذا الشارع لا يستحق – كما يبدو لي – كل هذه الشهرة وكل هذا الإجلال . فإنا إذا أغضينا عن قربه من المحطة نراه شارعاً عادياً غير رحب يقطعه السائر على الأقدام فى أقل من ثلاث دقائق ؛ ومبانيه متوسطة وقديمة . وإذا استثنينا شركة مصنوعات بنك مصر فليس فيه من المحال التجارية ما يستحق الذكر وكل ما يمتاز به هذا الشارع ويسترعى الأنظار هو شرفات مستطيلة خشبية ترتكز على أعمدة خشبية وتمتد بامتداد وجهة المنازل .



وليس معنى هذا أن الزقازيق خالية (بالمرة) من الشوارع الكبيرة والأسواق التجارية الهامة فقد استحدثت هندسة التنظيم فيها شارعا ليس له نظير فى أمهات المدن المصرية هو شارع المنتزة العظيم الذي يبدأ من محطة البضائع وينتهي عند ترعة الوادي ، وتتوسطه متنزهات مستطيلة الشكل فتقسمه إلى طريقين وتزيده بهجة وروعة ويضاء ليلا بمصابيح كهربائية قوية ركبت على أعمدة من الرخام الصناعي (مزايكو) ترتكز على قواعد من الأسمنت المسلح صنعت فى شكل هندسي بديع وسيكون لهذا الشارع فيما بعد أثر كبير فى تجميل المدينة وذلك كلما تكاثرت وازدادت " العمائر " والأبنية الفخمة الشاهقة على جانبيه ، وما يتلو ذلك من فتح المحال التجارية والمقاهي والملاهي . ويعتبر هذا الشارع بحق من أهم مشروعات هندسة التنظيم فى المدينة ، فأنه يشهد بحسن الذوق والبراعة والتفاني فى خدمة المدينة . والدليل على ذلك ما كان عليه هذا الشارع منذ سنوات قلائل ، فقد كان جسراً مرتفعا من الأرض تجتازه قضبان السكة الحديدية وتقف

فيه عربات البضائع للشحن والتفريغ ، أو بعبارة أخرى كان مخزنا لمحطة البضائع وكانت القاذورات والأتربة مكدسة على جانبيه .

أما بناء المديرية والبندر فيقع فى شارع رحب له مماش جانبيه مسقفة تسمى " بواكى " على نسق شارعي كلوت بك ومحمد على بالقاهرة ، غير أنه محدود الطول وفيه مخازن الأقمشة القطنية والصوفية. ومن الشوارع الهامة بالزقازيق شارع مولد النبي، والحريري؛ وهو كثير الشبه بشارع عباس فى شرفاته الخشبية المستطيلة .، وفيه دار الخيالة وهى الدار الوحيدة المحترمة فى المدينة وإن كانت فى نظري لا تضارع دور " السينما " المتوسطة فى كثير من المدن المصرية ، سواء فى البناء أو فى الأجهزة أو فى مكبر الصوت - وهذا أيضا عيب ظاهر من عيوب الزقازيق ؛ فالمقيمون بها فى أشد الحاجة إلى دار محترمة للصور المتحركة . وقد أسست دار أخرى فى شارع المنتزة ولكنها لا تستحق الذكر .



ومن عيوب الزقازيق كثرة الغبار والتراب فى فصل الصيف ، وكثرة الوحل والطين فى الأيام المطيرة – ولذا كانت شوارعها وأزقتها فى أشد الافتقار إلى التمهيد والتعبيد والكنس والرش والبلدية هنا لا تألو جهداً فى القيام بواجباتها على الوجه الأكمل ، فقد قامت هذا العام برصف وتعبيد جانب من الشوارع الهامة ولكنها فى حاجة إلى المال لإتمام الجزء الأكبر منها .

وقد أمكن الآن للزقازيق بعد عدة محاولات مخفقة سببت إفلاس بعض المقاولين أن تضم إلى باطنها مثل ما فى بطون المدن الكبيرة من المجارى التي تتوقف عليها حالة المدينة الصحية ونظافة شوارعها وأزقتها والتقليل من رطوبة أراضيها ومبانيها . ويا حبذا العمل لو بادر أصحاب الأملاك إلى إيصال مجارى منازلهم بهذه المجارى العمومية لتصريف ماء المنازل إليها محافظة عليها وعلى صحة ساكنيها، فان رطوبة البناء تفضي إلى إخلاله

وتفتت الأحجار – ولذلك لا يعمر البناء طويلا – كما أنها تؤدى إلى برودة الحجرات وعلى الأخص فى الشتاء ، وهذا يضر بالآهلين ضرراً بليغاً . وقد لاحظت عادة سيئة منتشرة بين أصحاب المنازل الصغيرة وهى انتهاز فرصة المطر وتوحل الشوارع لإلقاء الماء القذر فى الأزقة والحارات وبذلك يزيدون الطين بلة ويساعدون على استمرار الوحل أياماً حتى بعد جفاف معظم الشوارع ولابد أن هذه العادة السيئة ستزول بطبيعتها عند ربط مجارى هذه المنازل بالمجارى العمومية .

وبحر مويس هو أهم ترعة تعتمد عليها الزقازيق فى ري أراضى الشرقية وإمداد السكان بماء الشرب بعد ترشيحه . ويجف ماء هذه الترعة مدة أربعين يوما تقريبا تبدأ من نهاية شهر ديسمبر فتستمد المدينة ماء الشرب فى خلال فترة الجفاف من الماء الباطني فيتغير طعم الماء فى هذه المدة ولا يكاد يسيغه الشارب دون تبريد أو إضافة بعض ماء الزهر أو الورد إليه . ويحف ببحر مويس شارعاه الشرقي والغربي . وتقع المدرسة الثانوية الأميرية ودار البريد والمصارف الهامة كالمصرف الأهلي ومصرف (بنك) مصر ومصرف(باركليز) ومصرف التسليف الزراعي ونادي رابطة الموظفين ودار الكتب و" وابور" النور والحدائق العامة على الجانب الشرقي ، وعلى الجانب الغربي تقع المدرسة الابتدائية الأميرية ودار المدير ومصلحتا المباني ومشروعات الري . وللجانب الشرقي أهمية أخرى لأهل الزقازيق فهو طريق منازلهم إذا أشتد قيظ الشمس يسلكه الناس زرافات ووحدانا فى أيام العطلة والأعياد وعند الغروب فى أيام الصيف لاستنشاق الهواء الطلق والاستراضة فى حدائق البلدية الواقعة بجوار " وابور " النور وهذان الشارعان فى أشد الحاجة لعناية هندسة التنظيم لشدة ما يعانيه المارة من التراب والغبار فى الصيف والوحل والطين في الأيام



المطيرة فى الشتاء والشارع الشرقي على الأخص يفتقر إلى الكثير من التجميل وذلك بتوسيعه وبناء (إفريز) ذي حاجز حجري يطل على بحر مويس على نمط بعض أرصفة القاهرة والمنصورة النيلية أو على مثال إفريز ترعة الوادي المقابل للصاغة . مثل هذا المشروع يكسب البلد رونقاً وجمالاً ويزيد فى اجتذاب (المستريضين) ولاسيما إذا غرست الأشجار على جانبي هذا الشارع وزود الإفريز المقترح إنشاؤه بمقاعد حجرية ثابتة بين كل مرحلة وأخرى لراحة السائرين .

ولن أتعرض إلى حاجة البلد إلى إنشاء الميادين الواسعة والمراحيض والمرافق العامة والإكثار من الجسور فهندسة التنظيم على ما يبدو لي شارعة وجادة في هذا السبيل . والأمل عظيم فى ألا ينقضي وقت طويل حتى نرى المدينة قد زودت بكل ما يلزمها من هذا القبيل .

ويجدر بي قبل أن أختم هذا المقال أن أوازن موازنة سطحية بين الزقازيق الحالية والزقازيق القديمة الناشئة التي سبق وصفها لاستخلاص مدى تقدمها أو مقدار تأخرها – أقول إن نتيجة الموازنة مع الأسف لا تسر حبيباً إنما تسر عدواً؛ فالمحالج والمطاحن ومصانع الثلج التي شاهدناها قد أندثرت جميعها ولم يبق منها إلا النزر اليسير الذي لا يستحق الذكر وهذا أسطع دليل على ركود الحالة التجارية بهذه المدينة الآن وحركة البناء والعمارة التي كانت تزداد يوما بعد يوم قد شلت وقتا طويلا بدليل وجود الكثير من المنازل القديمة متهدمة ؛ والأسواق ليست على حالة من الرواج محمودة بدليل كثرة المتعطلين من الشباب العمال

وقد يرجع ذلك إلى إغلاق آخر مصنع للدخان كان في هذه المدينة وكان يعمل به نحو أربعة آلاف عامل .

وإذا استقصينا علة هذا الركود التجاري والمعماري وجدنا أنه يرجع إلى جملة عوامل أهمها : (١) انصراف موسرى المدينة عنها للإقامة بالقاهرة . (٢) إهمال بعض الأغنياء منهم بيوتهم إهمالا أدى إلى تهدمها . (٣) استيلاء بعض الأجانب على جزء كبير من الأملاك يستغلونها دون الاهتمام بإصلاحها وتجديدها . (٤) وقوع الكثير من الملاك في براثن المرابين ؛وطبعي أن يعجزوا عن تعميرها وإصلاحها بل عن الاحتفاظ بها

والأمل كبير فى أن تستعيد الزقازيق مجدها القديم ونشاطها الغابر ، فقد بدأ فعلا فن المعمار يبعث من مرقده وظهرت آثاره فى القصور العظيمة التي استجدت بشارع المنتزة وعلى ضفاف بحر مويس . والظاهر أن ذلك يرجع إلى ازدياد عدد موظفي الحكومة بالمدينة نظراً لإيجاد منطقة التعليم الخاصة بشرق الدلتا الجنوبية بها فضلا عن نقل قسم مشروعات الري إليها.

عبد العزيز فياض مدرس اللغة العربية

الزقازيق في ٢٠ديسمبر ١٩٣٨م.

وختاماً

فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد فى إحياء ما جمد وجف من تراث الثقافة الماضية الخاصة بالشرقية أو الحفاظ على الباقى من عناصر هذه الثقافة المحلية لأن فى ذلك محافظة على كيان الشعب نفسه .

فلنبدأ فى تقديم ما يجب علينا نحو "الشرقية" من إبراز لكيانها الشعبى والتاريخى ومعالم شخصيتها التى لا تنفصل بأى وجه عن الشخصية المتكاملة لمصر ؛ الإنسان والحضارة والأرض خاصة وأن الكثير جداً مما نعانيه اليوم يرجع إلى أننا تركنا الثقافة الدخيلة تغزو ثقافتنا حاملة معها قيماً جديدةً تحاول أن تحل محل قيمنا فكانت النتيجة أن اختل ميزان القيم عندنا ، الأمر الذى جعل عملية الاقتباس فى هذه الحالة تصب فى خانة الخصم من رصيدنا لا الإضافة إليه .

وإذا كانت أوربا تخشى على ثقافتها من الثقافة الأمريكية فنحن أولى بهذا الخوف وأولى بالاهتمام والمحافظة على ثقافتنا "المحلية/التحتية" وشخصيتها وقيمنا التى حين نفتش عنها فى الشرقية وعن كل فرد فيها سنجد مخاضات السنين فى المرآة تسقى بماء واحد يساقط من ذرا الموروث الشعبى بمجرد هزة فى جزع نخلة أو رعشة فى ساق فسيلة. حينما تمشى فى دروبها وحول نيلها تجد أنك تنتقل بين دفات المعاجم وعجائب الآثار وكتب التاريخ ومرافئ الحكايات الشعبية وساحات الإنشاد الدينى ستجد نفسك فى عاصمة الرعامسة وفى تل بسطة وحيناً فى قنتير وتانيس وفاقوس والختاعنة وبلبيس أو تسبح فى بحر (مويس) حيث طاف بالصندوق موسى عليه السلام وأنت فى كل الاحيان تحيا وسط الكلأ الآمن لهزيل

الطبعة الأولى
رقم الإيداع ١٢٢٠٦/ ٤ /٢٠٠٥م

***

Moneeraziz@hot mail.com

دار الإسلام للطباعة والنشر